١٧٦

روايات أحلام

ضاعت في عينيه

www.elromancia.com

مـــرمـــوريـــة

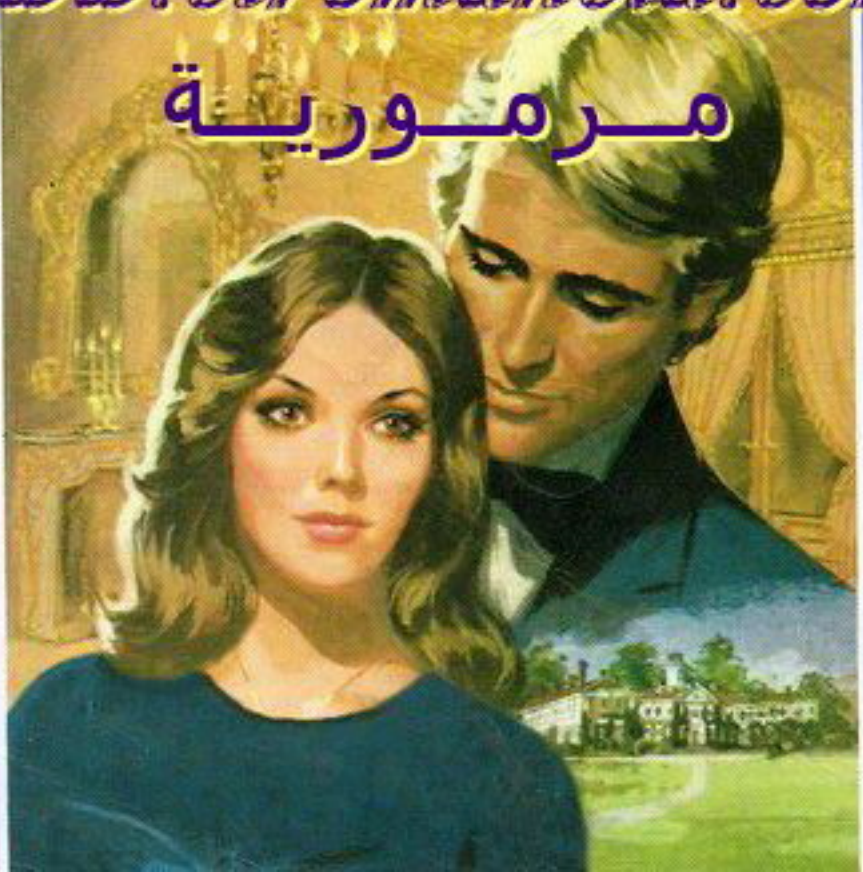

روايات أحلام

ضاعت في عينيه

طوال حياتها كانت ديبرا سامبسون تظن أنها يتيمة، حتى سافرت إلى أميركا.. وكانت في الثانية والعشرين من عمرها عندما عرفت الحقيقة... أنها ابنة النجمة السينمائية العالمية اليزابيت ستيل التي قتلت منذ زمن بعيد في حادث طائرة... ولكم غيّر هذا الاكتشاف حياتها إذ دخلت عالم الأفلام المتألق المترف الذي كان عالم أمها... ولكنه أيضا عالم دومنيك ماكجيل... الرجل الذي لم تستطع مقاومة جاذبيته وخبرته الساحقة أكثر مما استطاعت أمها من قبل.

فهل بإمكان ديبرا الهرب منه قبل أن تتكرر المأساة ذاتها؟

لبنان ٢٠٠٠ل.ل. الإمارات مصر ٤ ج. ليبيا سوريا ٧٥ل.س. قطر ٦ر. المغرب ١٥ د. اليمن الأردن ١ د. البحرين ٦٠٠ف. تونس ٢ د. السودان الكويت ٥٠٠ ف. السعودية ١٠ ر. عمان ٦٠٠ ب. العراق

١ ـ زيارة غريبة

خرجت ديبرا باكراً من المبنى السكني إلى دفء النهار الربيعي. كان الضباب الخفيف الذي يلف البناء يبشر بانقشاع مبكر، ويكشف عن المنظر الرائع أسفلها... عندما علمت أنها ستأتي إلى سان فرانسيسكو على الساحل الغربي للولايات المتحدة، ساورتها في البداية خيبة الأمل. فقد أرادت أن ترى نيويورك وواشنطن وغيرهما من المدن الشهيرة القائمة على الساحل الشرقي، لكنها نسيت شكوكها تلك عندما وصلت وأدركت أنها ستسكن مدة ستة أشهر في إحدى أجمل مدن العالم. خلال الثلاثة أشهر التي مرت عليها هنا، أدركت أن وراء كل منعطف شارع مشهد ساحر غير متوقع يشكّل تحدياً للفنان. شعرت بأنها وقعت في غرام هذا المكان وأخذت تشعر بالذعر لفكرة العودة إلى وطنها إنكلترا وإلى خالتها جوليا.

ابتسمت لساعي البريد الودود وهو يمر بها، ثم أخذت تسير متمهلة هابطة الدرجات المؤدية إلى مدرسة «فيلبرت الثانوية» حيث كانت تعمل معلمة... لقد جاءت من بلدة «ڤاليدون» في مقاطعة «ساسيكس» ضمن منهاج تبادل المعلمين، وقد سبب هذا إزعاجاً بالغاً للخالة جوليا قريبتها الوحيدة.

كانت خالتها، لسبب غامض، تكره كل ما يتعلق بأميركا، هذا إلى أنها نادراً ما تسمح لديبرا بكثير من الحرية في إنكلترا رغم أن ابنة أختها قد أصبحت في الثانية والعشرين وقادرة كلياً على رعاية نفسها... وإذ لم تكن ديبرا من الفتيات المغرمات بالخروج كثيراً، لم تشأ أن تعصي خالتها

دون ضرورة لذلك. فقد كانت مغرمة بالكتب والقراءة والموسيقى الكلاسيكية ورغم أن ملابسها عصرية، فقد كانت محافظة في كثير من الأمور، وهذا عائد طبعاً إلى تأثير خالتها عليها.

ولكن عندما سنحت لها هذه الفرصة للتفرج على العالم صممت ديبرا على انتهازها، وهي على كل حال ما كان بإمكانها أن تقوم برحلات كهذه على نفقتها الخاصة، فخالتها تستولي على معظم معاشها للإنفاق على البيت، ولأن ديبرا تعلم أن ليس لخالتها سوى معاش التقاعد لتعيش به، لم تمانع في ذلك. ولكن هذا كان يعني أن عليها أن تخيط ملابسها بنفسها، كذلك لم تكن تسرف في استعمال الزينة لوجهها. فبشرتها، لحسن الحظ، ناعمة نضرة، كما أن لعينيها الخضراوين المنحرفتي الزوايا أهداباً قاتمة تنسجم مع شعرها القاتم الكث. ولم يكن شعرها الحريري الناعم بحاجة إلى أي زينة أو تنظيم. فكانت بملابسها المناسبة تماماً وزينتها الخفيفة تبدو بالغة الجمال. ولكن ديبرا المستغرقة في عالمها المكوّن من الكتب والتعليم، لم تكن تهتم بنفسها.

استدارت الآن حول منعطف «مابل ڤاين»، ثم دخلت إلى المدرسة من بوابة عالية. بما أن طولها لا يكاد يتعدى المتوسط، فقد بدت أشبه بتلميذة منها بمعلمة. وأحياناً كان تلاميذها العفاريت يستغلون هذا، ولكنها باجتهادها في أن تجعل دروسهم ممتعة، كانوا ينسون هزلهم.

هذا الصباح مثلاً رتبت زيارة إلى أحد استوديوهات التلفزيون، للتفرج على تصوير فيلم متسلسل. تقع الاستديوهات في «ماركت ستريت» عند الناحية البحرية من المدينة حيث مئات من السفن تبحر كل شهر. عشقت ديبرا هذه المنطقة التي يقود فيها مراكب صيد السمك الملونة غالباً إيطاليون مستوطنون. وأحياناً، أيام الآحاد، كانت تأخذ شطائر لغدائها ثم تمضي النهار تتفرج على الحوانيت الصغيرة التي تكثر على رصيف الميناء. وأحياناً تنضم إلى رحلات بحرية في الخليج حيث يمكنها النظر إلى مشهد المدينة عن بعد لتطبعها في ذاكرتها حين العودة إلى وطنها.

«مدرسة فيلبرت» ضخمة فسيحة محاطة بمؤسسات ثقافية.

جمعت تلامذة صفها الثمانية عشرة، وقالت:

ـ لقد رتبت أمر المواصلات إلى الإستديوهات. هل هناك أي سؤال تريدون توجيهه إليّ قبل أن نبدأ بالرحلة؟

سألها فتى أنمش، يرتدي بنطلون جينز وكنزة بيضاء طبع على صدرها حرف (V) ضخم: «هل سنتمكن من رؤية أي من الممثلين، يا آنسة وارن؟»

هزت ديبرا كتفيها: «من يعلم؟ أشك في ذلك، فقد كنا محظوظين لسماحهم لنا بهذه الزيارة. فالاستديوهات مشغولة كما أعتقد، ولذا لا يمكن أن نغالي في مطالبنا».

عبست فتاة شعرها على شكل ذيل حصان وقالت:

ـ آه، ظننت أنهم سيصورونا تلفزيونياً، ثم إن روس ماديسون هناك ونحن جميعاً نراه رجل الأحلام يا آنسة وارن؟

ابتسمت ديبرا: «أوه يا شيرالين، إنها زيارة تثقيفية نتعرف فيها إلى تقنية التصوير السينمائي وليس إلى نادي المعجبين بروس ماديسون».

أغرق التلاميذ في الضحك بينهم فشعرت ديبرا بالراحة. . كم ستفتقد تلامذتها هؤلاء حين تعود إلى الوطن.

استقلوا الحافلة التي أقلتهم إلى الإستديوهات، وصعدت بهم التلال بسهولة أما ديبرا فجلست على حافة مقعدها قلقة يتملكها التوتر مما تراه من النقص في تركيز السائق على الطريق، كعادة سائقي المدن. كانت واثقة من أنها لو استطاعت القيادة لما جرؤت أبداً على السير أميالاً هابطة مثل هذه المنحدرات المخيفة.

تقع الاستديوهات في مبنى فسيح غير مهيب من الخارج على الإطلاق. دخلوا إلى باحة الاستقبال ثم صعدوا سلالم أوصلتهم إلى مختلف الإستديوهات، فصدمهم مبلغ اتساعها ووفرة تجهيزاتها.

اقتربت ديبرا من مكتب الاستعلام معرفة بنفسها فعينوا لها مضيفة

تدعى الآنسة باويل. ولكن التلاميذ راحوا ينظرون حولهم باهتمام وفضول، وكل منهم يتوقع أن يرى شخصية ذات أهمية. صعد بهم أحد المصاعد إلى الطابق العاشر حيث قادتهم المضيفة إلى أحد الإستديوهات الواسعة، وكان لدى ديبرا فكرة مشوشة عن أضواء وكاميرات في كل مكان، وذلك قبل أن تلتفت الآنسة باويل إليها قائلة:

ـ المدير هنا هو السيد إيميت مورلي، هل سمعت به؟

ـ لا مع الأسف.

ابتسمت الآنسة باويل: «لا بأس، فهذا غير مهم. إنه معروف جيداً خارج الاستديوهات.. لقد أخرج أفلاماً كثيرة، ولكن الأمر يختلف كونك إنكليزية.. قد تقابلينه.. إنه رجل رقيق».

أومأت ديبرا ثم تابعوا جولتهم. لم يكن يحدث شيء حالياً، ولكن الآنسة باويل قالت إنهم سيصورون فيلماً عند الصباح. أصيبت شيرالين وبقية الفتيات بخيبة الأمل لعدم رؤيتهن الممثل روس ماديسون نجم المسلسل، رغم أن البطلة التي تقوم بالتمثيل معه موجودة وقد وقّعت بعض الأتوغرافات قبل أن تذهب إلى مكتبها.

اقترحت الآنسة باويل أن يذهبوا إلى مطعم هناك لتناول القهوة والكعك، فوافقت ديبرا. وفي المطعم شاهدوا العديد من الوجوه المألوفة، وفي هذه الأثناء وعت ديبرا أنها أخذت تجذب الكثير من الانتباه.

لم يكن تحديق الآخرين إليها هو ما أزعجها، ولكن إحساسها بأنهم يتحدثون عنها. بعض الرجال الكبار في السن وجدوها جذابة للغاية فأخذوا يحدقون إليها وهذا ما جعلها ترتبك وتتورد.

قالت للآنسة باويل: «هل كل هؤلاء الناس ينظرون إليّ أم أن مخيلتي تصوّر لي ذلك؟»

هزت الفتاة كتفيها وهي تنظر حولها: «لا أدري، لماذا؟»

تنهدت ديبرا قائلة: «آسفة، لا أريد أن أبدو سخيفة. ربما لا يزور تلامذة ومعلمتهم الإستديوهات كل يوم».

ضحكت الآنسة بايول: «هناك زيارات على الدوام إلى هنا.. لعلك تتخيلين ذلك. إنك فتاة بالغة الجاذبية.. ألم يسبق أن أخبرك أحد بذلك؟»

أجابت ديبرا وقد ساء شعورها عن قبل: آه، لا.

ضاقت عينا الآنسة باويل: «ألا يوجد رجال في إنكلترا؟ أم أنك تعيشين هناك في دير؟»

ـ لا، كل ما في الأمر أنه لم يكن عندي وقت... لذلك النوع من الأشياء.

فقالت الآنسة باويل ساخرة: «ظننت أن لندن أكثر المدن انحلالاً أخلاقياً في العالم».

ـ تبعد بلدتي «ڤاليداون» عن لندن ثلاثين ميلاً. على كل حال، هل نعود إلى الإستديوهات؟

أجابت الفتاة باسمة: «نعم، سنعود. لقد وعدني السيد مورلي أن يجعل الأولاد يرون شيئاً من التصوير».

وفي الإستديو رقم سبعة، كان إيميت مورلي يعطي فرقة التمثيل إرشاداته النهائية، وعندما سمع صوت قدوم التلامذة، أقبل نحوهم باسماً وقد تدلى من بين شفتيه سيكار ضخم. نظرت إليه ديبرا باهتمام، فهو أول مدير تقابله، ولأنه يخرج أفلاماً، بدا لها أهم مما تصورت. كان معتدل الطول ممتلئ الجسم بعض الشيء ولكن ابتسامته كانت ساحرة بالغة التأثير.

ابتسم للآنسة باويل: «مرحباً يا لوسي».

ثم نظر إلى ديبرا.

سرعان ما تغيرت ملامحه وحل مكان تودده نظرة عدم تصديق، ولمعت في عينيه الصغيرتين لمحة إدراك، فأزاح السيكار من فمه وقد ضاقت عيناه. ثم مرّ بيده على جبينه، ثم قال:

ـ اسمك، ما هو اسمك؟

فوجئت ديبرا ونظرت إلى لوسي باويل مستنجدة، ولكن الدهشة كانت تبدو على لوسي هي أيضاً. أجابت ديبرا قائلة: «ديبرا وارن، يا سيد مورلي».

أخذ ينظر إليها مقوّماً، ثم أعاد السيكار إلى فمه بذهن غائب. كان الأولاد ينظرون إليهما كذلك متسائلين عما يحدث.. تملك الانزعاج البالغ ديبرا. كانت في المطعم تشعر بالانزعاج لمجرد تحديق الآخرين فيها، أما هذا.. فأسوأ بكثير. ما الذي يجعل إيميت مورلي يحدق إليها بهذا الشكل؟ بدا وكأن الاستديو بأجمعه قد انتبه إلى هذا المشهد الصغير.

وأخيراً، اخترقت لوسي باويل الصمت بقولها:

ـ إنها المعلمة الإنكليزية في مدرسة «فيلبرت» يا سيد مورلي.

امتص مورلي سيكاره وهو يستجمع أفكاره، ثم قال رافعاً كتفيه:

ـ نعم، المعلمة في المدرسة الثانوية، هيا يا أولاد! تابعوا التفرج حولكم. اعملي معي معروفاً يا لوسي، واستلمي أمر هؤلاء الأولاد مدة خمس دقائق. امنحيني لحظة أتحدث فيها إلى الآنسة.. وارن على انفراد.

بدت المفاجأة على لوسي وقد بدا عليها عدم الرضا:

ـ إن لديّ يا سيد مورلي زائرين آخرين عليّ أن أطوف بهم بعد أن تنتهي زيارة هؤلاء..

ولكنها وجدت نفسها تتحدث وحدها، إذ رأت إيميت مورلي يأخذ بذراع ديبرا ثم يقودها نحو مكتب صغير ماراً بالمصورين وأعينهم الفضولية.

حاولت ديبرا الاحتجاج ولكن مورلي قال:

ـ مهلاً، مهلاً، يا صغيرة، فلن يخيفك أحد. كل ما في الأمر هو أنني أريد أن أتحدث إليك قليلاً.

ـ لا بأس.

لم تستطع الرفض لأن ذلك سيسبب ارتباكاً.. ولكن ماذا سيحدث

لها؟ فجدران المكتب من الزجاج، وكل العيون عليهما على كل حال.

كان في المكتب مقاعد مريحة وعدة تليفونات.. جلس إيميت مورلي خلف المكتب وأشار إليها أن تجلس على أحد المقاعد:

ـ تفضلي بالجلوس بحق الله، فأنا لن آكلك. تبدين مصعوقة من الخوف.

حاولت أن تجلس، وعندما رأت نفسها تغيب عن أعين من في الاستديو لأن الزجاج يرتفع بعد حوالى المتر من الأرض عادت تقف قائلة:

ـ حسناً! بصراحة، أشعر بتوتر كبير.

ـ لا سبب يدفعك لذلك. اجلسي! ما الذي يجعلك تتصرفين بهذا الشكل؟ هل هاجمك رجل ما أو ما أشبه؟

تصلبت كتفا ديبرا: لا بالطبع، إنما لم أفهم أياً من كل هذا، وأتمنى لو ينتهي. لا أدري ما هناك لنقوله لبعضنا البعض، فكل إنسان ينظر إليّ وكأنني حيوان غريب الشكل. هل أبدو حيواناً غريب الشكل؟

بدت ابتسامة على ملامح مورلي المتوترة:

ـ أنت كل شيء إلا هذا الوصف، فأنت فتاة جميلة بشكل خاص. ولا بد أنك تعرفين ذلك. فتاة مثلك لا يمكن أن تكون غافلة عن ذلك.

هتفت غير مصدقة: هل هذا كل ما في الأمر؟

فتردد مورلي: «نوعاً ما، والآن هل لك بالجلوس؟»

جلست ديبرا، وقبلت منه سيكارة قدمها إليها، وبعد أن أشعلها لها، أخذ يتفحص وجهها فترة قبل أن يقول: «من أي منطقة في لندن أنت؟»

ـ لا أظنك سمعت بها. تدعى المنطقة «فاليداون» في إقليم ساسيكس.. إنها تبعد حوالى ثلاثين ميلاً من لندن.

ـ هل تعيشين مع أبويك؟

ـ لا، أبواي متوفيان.

مال مورلي إلى الأمام باهتمام: أحقاً؟ وكيف توفيا؟

قطبت ديبرا جبينها قائلة: «لا أدري، ما أهمية كل ذلك الآن؟»

ـ أجيبي عن سؤالي فقط يا آنسة وارن.

ضغطت ديبرا شفتيها بغيظ، بأي حق يتكلم معها هذا الرجل بهذه الطريقة؟ ولكنها أجابته:

ـ قتلا في حادث تصادم قطار عندما كنت طفلة.

ـ هكذا؟ من رباك إذن؟

ـ أتريد تاريخ حياتي يا سيد مورلي؟

ـ نوعاً ما، استمري.. من فضلك.

فتنهدت ديبرا: ربتني خالتي جوليا.

فاستند إلى مسند المقعد: آه، والآن أخبريني يا صغيرة، ماذا تعرفين عن أليزابيت ستيل؟

ـ أليزابيت ستيل؟ لماذا؟ لا أعلم سوى أنها كانت ممثلة شهيرة قتلت في حادث طائرة، لماذا؟

لم يجب، وإنما قال:

ـ كانت شهيرة، شهيرة جداً كما تقولين، ومحبوبة للغاية أيضاً رغم شيء من الغرور أحياناً.. كان موتها مأساة بالنسبة إلينا جميعاً. كانت في الثالثة والأربعين فقط، ولكن لم يكن يبدو عليها ذلك. حدث ذلك منذ أكثر من عشر سنوات. كم كان عمرك عند ذاك؟

فكرت ديبرا لحظة: إثني عشر عاماً كما أظن.

ـ غريب.. غريب جداً.

ـ ما سبب هذا كله يا سيد مورلي؟ أعني دعوتك لي إلى هنا ورغبتك في معرفة تاريخ حياتي. وها أنت تسألني عن ممثلة ماتت منذ عشر سنوات؟ إنني آسفة على موتها طبعاً، ولكنني لا أفهم ما دوري في هذا كله؟

ـ لا بأس، لا بأس يا آنسة وارن، سندع الموضوع جانباً الآن. هل تتذكرين والديك؟

قطبت ديبرا حاجبيها: لا أبداً، لماذا؟

وبدا عليها التوتر، فهز كتفيه وقال ساخراً:

ـ اهدئي يا آنسة وارن، فلدي أسباب لذلك. عفواً لهذا التحقيق معك، لكن من غير المستحسن الكشف عن الأمور الآن. إنني آسف.

وقفت ديبرا وسارت نحو الباب: هل يمكنني الذهاب الآن؟

أجاب باقتضاب: «نعم».

ثم تبعها إلى خارج المكتب حيث كانت لوسي باويل والأولاد في انتظارها بفروغ صبر فسلمتها الأولاد بشيء من الراحة، وعندما أوشكت ديبرا على القول إن الوقت حان للانصراف، قال إيميت مورلي:

ـ ما رأيكم يا أولاد؟ هل تحبون أن تروا معلمتكم الآنسة وارن تمثل على الشاشة؟

التفتت ديبرا إليه وهي تضغط شفتيها بغضب: آه، صحيح أن هذا...

فهتف التلميذ ذو الوجه الأنمش: نحب هذا طبعاً.

وردد بقية الأولاد: «هذا مؤكد».

وهتفت شيرالين حالمة:

ـ قد يجعلون منك نجمة تلفزيونية، آه، يا آنسة وارن.. ما أجمل أن تعملي مع روس ماديسون!

تملكت الحماسة الأطفال جميعاً ورأوا في هذا عذراً للابتعاد عن المدرسة مدة أطول. وأيقنت ديبرا أن السيد مورلي تعمّد أن يقول هذا للأولاد لأنه كان واثقاً من رفضها لو طلب ذلك منها وحدها، وهكذا أدركت أنها ستبدو صغيرة تافهة لو رفضت.

أخذت تقول ببطء:

ـ صدقني يا سيد مورلي أن الوقت حان لانصرافنا.. أنا آسفة ولكن..

دلّت تقطيبة حاجبيه على أنها أزعجته:

ـ كلام فارغ، ما الذي يخيفك هنا؟ لسنا غيلاناً بل بشراً.

فهتفت غاضبة: أنا.. أنا لست خائفة.

ـ ما الذي تخسرينه إذن؟ اجري اختباراً.

قبضت يديها متوترة: إنك.. إنك تجعل من المستحيل عليّ الرفض، فأنت تعلم تماماً أنني إذا رفضت فسأخيب أمل الأولاد.

فقال بجفاء: تماماً، ما الذي يؤخرك إذن؟

تبادلا النظرات لحظة، ثم قالت:

ـ لا بأس. ولكنني ما زلت أرى الأمر سخيفاً.

اقتربت لوسي باويل من ديبرا، بينما ابتعد مورلي ليقوم بالترتيبات المعتادة لإجراء الاختبار.

نظرت إلى ديبرا بإمعان: كيف حدث هذا؟ هل بينك وبينه قرابة؟

فهتفت ديبرا:

ـ لا أبداً.. ولا أدري ما الذي حدث، هل يأتي الكثيرون لإجراء اختبارات في التمثيل؟

ـ عدد لا بأس به، ولكن ليس بمثل هذه السرعة.. هنالك دوماً المئات من الرجال والنساء يتسكعون بانتظار أن يكتشفهم أحد كما يقولون، ولكن ما حدث لك هو شيء فريد في نوعه.

ـ ولكن لماذا؟

ـ هذا ما أحب أن أعلمه، لم أر مورلي مهتماً بهذا الشكل من قبل إلا إذا كان يتوقع الربح البالغ من وراء الأمر.

تنهدت ديبرا بضعف:

ـ هذا شيء غير معقول. حسناً، أرجو أن ينتهي هذا بسرعة.

فقالت لوسي ساخرة: «ادعي إلى الله بالنجاح. هل لديك فكرة عما تحصلين عليه من التمثيل التلفزيوني؟»

هتفت ديبرا: «لا يهمني المال إلا بقدر ما يكفيني غذاء وكساء. ليس لدي طموح الثراء».

فقالت لوسي بجفاء وهي تبتعد تاركة ديبرا مع أفكارها المضطربة: ما أغرب هذا!

سرعان ما أخلي الاستديو واستلم مورلي الأمر، وعجبت ديبرا وهي ترى التغيير الذي طرأ عليه فقلبه من ذلك الرجل الهادئ الكسول إلى نمر يتفجر بالعنف إذا لم تتحقق مطالبه على الفور، ولكنها لمحت النبوغ خلف مظهره الخارجي، وترك هذا في نفسها تأثيراً بالغاً. لم يكن ممثلو الفيلم المتسلسل مسرورين لتأجيل عملهم، لذا شعرت ديبرا باشمئزاز من كل شيء. لم يكن معقولاً أن يقوم إيميت مورلي بكل هذا لمجرد إعجابه بوجهها، وهذا ما جعل غرضه الخفي يقلقها.

عندما ابتدأ الاختبار، لم تجده صعباً على الإطلاق. فقد اتبعت إرشاداته بطاعة تامة. وحالما أصبحت أمام الكاميرا هدأت أعصابها وشعرت بالراحة التامة ولم تعلم لماذا شعرت بالإلفة نحو المناظر، وعندما تسلمت نص التمثيلية المكتوب أخذت تقرأه دون تفكير. كانت دوماً تهوى التمثيل، فكانت تأخذ أدواراً في المسرحيات المدرسية. وعندما انتهت من إلقائها، لم تعلم مبلغ إجادتها في ذلك إلا بعد أن دوّى الإستديو بتصفيق فريق التمثيل وبقية الحاضرين الذين كانوا يتفرجون.

دفعت إلى مورلي النص وقد التهب وجهها ارتباكاً، ثم قالت:

ـ والآن، هل يمكنني الذهاب من فضلك؟

كان الشرود بادياً على ملامح مورلي الذي أومأ وقد بدا عليه الضياع في أفكاره أما هي فأسرعت بالهرب... لم تعلم سبب رغبتها القوية عندما انغلق باب الاستديو خلفهم بالابتعاد، ولكنها كانت رغبة قاهرة وكم تنفست الصعداء.

أبدى التلاميذ إعجابهم بها بصوت مرتفع، ولكنها استطاعت إسكاتهم. كل ما شعرت به هو الراحة لانتهاء محنتها، لذا رفضت التفكير في أسباب كل ذلك فقد كان ما حدث بالغ الغرابة، وتملكتها شكوك مزعجة في أن إيميت مورلي لن يدعها تبتعد عنه بسهولة، فمن السهل عليه العثور على رقم تليفونها إذا أراد الاتصال بها مرة أخرى.

أبعدت هذه الأفكار عنها بفروغ صبر... من غير المستحسن أن يقلق

الإنسان على شيء قد لا يحصل أبداً.

لم تتذكر النص الذي ألقته خلال الاختبار على شاشة التليفزيون إلا بعد أن لجأت إلى فراشها آخر النهار. لقد وضع مورلي النص في يدها فمنعها انشغال بالها من الانتباه إلى محتوياته، لكنها أخذت تتذكرها الآن. كانت من فيلم (أڤينيرا) والكلمات التي تفوهت بها هي كلمات البطلة لورا، وهو الدور الذي منح الممثلة الراحلة إليزابيت ستيل أعظم نجاح لها.

***

٢ ـ القدر يقرع الباب

سكبت ديبرا لنفسها فنجان قهوة، ثم حملته إلى الأريكة عند نافذة غرفة الجلوس التي تطل على مشهد الميناء. في هذه الساعة المبكرة من المساء، كان جماله لا يصدّق... كانت الشقة صغيرة، وليست هادئة دوماً كما هي الآن، فالشقق الأخرى في البناية يسكنها فتيان يمضون أمسياتهم في الرقص والاستماع إلى الموسيقى. كانت تمضي ساعات في الجلوس هنا، تحلم أنها ستكون في الوطن بعد اثني عشر أسبوعاً فقط.

لم يكن التفكير في عودتها إلى منزل خالتها يجلب السرور إلى نفسها، لأن الخالة جوليا لم تكن تحب معاشرة الناس، ولا الترحيب بحضورهم إلى بيتها القائم بجانب النهر. فقد كانت راضية بالجلوس أمام التلفزيون تحيك الصوف أو تقرأ مجلة أحياناً، وهذا كان عالمها. وفي الواقع، ابتدأت ديبرا تفكر في أن هذا هو عالمها هي أيضاً، ولكن هذه الرحلة أوضحت أشياء كثيرة. فقد تعرفت إلى أناس كثيرين لطفاء اهتموا بها. عندما كانت في بلادها كانت خالتها تفسد كل علاقة تقيمها ولذا امتنعت ديبرا عن دعوة أحد إلى البيت.

لم تعقد قط صداقة مع شبان.. كانت تحضر أحياناً محاضرات مع بعض الزملاء، بعضهم من الرجال، وهذا كل شيء.

ولكن هنا في أميركا، كل شيء مختلف، لم تكن هنا خالتها جوليا لتمنعها من اتخاذ الأصدقاء. ولكنها ما تزال خجولة للغاية.

تنهدت وأشعلت سيكارة مع أنها لم تكن تدخن على الإطلاق في

www.elromancia.com

الوطن. ولكنها كانت تستمتع بسيكارة مع فنجان قهوة في مثل هذه الساعة من المساء، وطالما تساءلت عما كانت حياتها ستكون عليه لو أن والديها على قيد الحياة. لم تكن تعرف الكثير عنهما، فهي لا تعرف سوى الخالة جوليا وبلدتها ڤاليداون. تذكر أنها عاشت في مكان آخر أقرب إلى لندن ولكن دوماً مع الخالة جوليا، وكلما سألتها عن أبويها كانت تتلقى جواباً غير كافٍ. كانت جوليا تظن أن موت الوالدين في حادث تصادم هو خبر كافٍ بالنسبة إلى طفل مستوحش ولم تفهم قط أن ديبرا كانت ستعتز بكل ما قد تخبرها به من ذكريات بنهم متعطش.

نبذت ديبرا هذه الأفكار الناكرة للجميل فلولا خالتها لنشأت في ميتم وهو مكان كانت تصفه خالتها بشكل مرعب كلما أرادت تخويفها به لكي تحملها على الطاعة.

انتبهت إلى خطوات خارج شقتها تعلن عن وصول ثلاثة فتيان يعيشون في الشقة التي فوقها. وبعد ذلك بدقائق تعالت الموسيقى من فوق، فعادت ديبرا تتنهد مرة أخرى ثم وقفت سائرة نحو المطبخ لتضع فنجانها الفارغ.

بعد السابعة والنصف، عمَّ الظلام المكان فأخذت تتساءل عما عساها أن تفعل. لم تكن تحب الخروج وحدها، ولم تكن رتبت أمرها للخروج مع أي من فتيات المدرسة هذا المساء.

فجأة تصاعد رنين التليفون فأجفلت.. لم تتعوّد بعد على وجود التليفون. تناولت السماعة وهي تتساءل عمن يكون المتصل.

ـ آلو، ديبرا وارن تتكلم.

جاءها صوت رجل لا تعرفه:

ـ الآنسة وارن؟ هذا حسن، علمت أنك أخذت مجموعة من المراهقين إلى استديوهات «أوميغا» منذ عدة أيام.

عضت ديبرا شفتها، لم تكن قد نسيت شعورها غير السار بذلك المديح الذي تلقته، ورغم أنها حاولت أن تنسى كل ذلك، إلا أن كلمات هذا الرجل جعلت الذكرى تندفع فجأة عائدة إليها.

قالت له ببرودة: «هذا صحيح، ولكن عليّ أن أنبهك إلى أنني غير مستعدة على الإطلاق لإجراء اختبارات سينمائية أخرى. أنا معلمة مدرسة وليس لديّ رغبة في أن أكون نجمة سينمائية».

بدا صوت الرجل أشبه بتفكه مكبوت، فشددت قبضتها على السماعة وقالت:

ـ أرجوك أن تقفل الخط أياً كنت.

فقال بسرعة: «انتظري، انتظري. اسمعي، اسمي هو دومينيك ماكجيل وأريد أن أراك».

دومينيك ماكجيل؟ إنها تعرف ذلك الاسم. من تراه يكون؟ نجماً سينمائياً؟ لا، لم يتقبل ذهنها هذا. أين رأت اسمه؟ حديثاً! ومرت بيدها على جبينها بحيرة.

قال لها وكأنه قرأ أفكارها: «أنا مؤلف مسرحي».

آه، تذكرت الآن، دومينيك ماكجيل الكاتب المسرحي، فقد رأت اسمه في النص الذي أعطاها إيميت مورلي إياه لتقرأه. دومينيك ماكجيل مؤلف «أڤينيرا» المسرحية التي حين جعلت فيلماً منحت إليزابيت ستيل أعظم أدوارها.

ابتلعت ريقها وقالت: «لا أعلم لماذا تتصل بي يا سيد ماكجيل».

ـ أحقاً؟ حسناً، هذا لا يغيّر شيئاً، فما زلت أريد رؤيتك.

فقالت بسرعة: «لقد أوضحت لك أنني لا أريد العمل مرة أخرى في ذلك الاختبار على شاشة التلفزيون.. افهمني يا سيد ماكجيل فأنا لست مراهقة مفتونة بالسينما، ولا يهمني ما ستقوله مثقال ذرة».

فقال بلهجة بدت أقل مودة:

ـ أهكذا إذن؟ والآن اسمعي يا آنسة وارن، لا أنوي مناقشة هذا الأمر على التليفون... متى تريدين مني أن أحضر؟

رددت كلامه بحيرة: «أن تحضر؟ ولكن ليس لدي ما أقوله أكثر من هذا، فأنا لا أريد شيئاً يتعلق بذلك الأمر».

برد صوته: آنسة وارن، أنا أريد رؤيتك، والآن أعطيني موعداً كأي فتاة طيبة.

فقالت بغضب: «أليس هناك قانون ضد هذه الأمور؟ إنني سأقفل الخط الآن يا سيد ماكجيل، وأرجو منك ألا تتصل مرة أخرى».

وهكذا فعلت، فوضعت السماعة بعنف ولؤم لم تعرفهما في نفسها من قبل.

ثم أشعلت سيكارة أخرى، وفتحت التليفزيون. غاظها أن تجد نفسها ترتجف، فهزت نفسها بعنف، لماذا ساورها فجأة هذا الشعور بالخشية؟ فمجرد تلقيها مخابرة من دومينيك ماكجيل هو شيء غريب غير معقول.

سارت نحو المرآة وأخذت تتفرس في ملامح وجهها. ما الذي يجعله يثير كل ذلك الاهتمام؟ لم تكن جميلة بشكل خاص.

عبست لنفسها ساخرة، ثم أخذت الكتاب الذي كانت تقرأ فيه وذهبت إلى الأريكة مهملة التليفزيون بشكل كلي.

بعد ذلك بساعة تقريباً، قرع جرس بابها... عبست ووضعت الكتاب من يدها ثم نظرت إلى ساعتها. إنها التاسعة تقريباً.. تملكها التوتر على الفور، من تراه قادماً لزيارتها في مثل هذه الساعة؟ سارت نحو الباب ثم فتحته جزئياً بقدر ما تسمح به السلسلة.

كان هناك في الخارج رجل، طويل القامة نحيلاً لوحت الشمس بشرته، شعره بلون القش. لم يكن وسيماً وملامحه حادة قاسية، ولكن عينيه زرقاوان تظللهما أهداب سوداء اخترقتا أعماقها بحدة مشاعرهما، قالت له:

ـ نعم..؟

ـ أنا دومينيك ماكجيل، هل أستطيع الدخول؟

اشتدت قبضتها على مقبض الباب ثم قالت محاولة الاحتفاظ بثبات صوتها:

ـ لا، لقد قلنا... قلنا كل ما يمكن أن يقال في التليفون.

فهز رأسه: «لا، لم نفعل. والآن افتحي الباب».

كان صوته هادئاً، ولكن عينيه الزرقاوين ضاقتا، فشعرت ديبرا فجأة بالخوف. فمن الذي سيفتقدها إذا هي اختفت من الوجود؟

قالت وهي تمرّ بلسانها على شفتيها الجافتين:

ـ أرجوك، اذهب من هنا. يؤسفني أن تذهب رحلتك سدى.

قال متجاهلاً توسلاتها: افتحي الباب.

أغمضت عينيها لحظة: «وإذا لم أفعل؟»

ـ بل ستفعلين.

التفتت نحو التليفون: يمكنني استدعاء الشرطة.

فقال ببساطة وكأنه يتحدث عن الجوّ: قد تموتين قبل وصولهم.

رفعت يدها إلى فمها بذعر: آه..

فقال ببرودة: افتحي الباب بحق الله، ليس هناك ما يخيفك مني.

فتحت الباب بيدين مرتجفتين فدخل إلى الضوء. ثم، كما حدث مع إيميت مورلي من قبل، رأته قد صُدم لمرآها لحظة عاد بعدها يسيطر على ملامحه.

رأته الآن... رجلاً في أواخر الثلاثينات من العمر، يرتدي ملابس بسيطة عبارة عن كنزة كحلية فوق بنطلون رمادي، وفوقهما معطف خفيف. بالغ الجاذبية، ولكن نوعاً من الجاذبية البدائية تنبثق منه. ومهما كان نوع الحياة التي يعيشها، فهي لم تكن سهلة على الدوام.

تمتم يقول: «إذن فأنت ديبرا وارن؟»

لم تجب وبقيت واقفة تفرك مرفقيها براحتيها.

ـ أخبرني إيميت أنك أدّيت اختباراً جيداً، وأنك قرأت جزءاً من نص لورا في فيلم أقينيرا.

هزت ديبرا كتفيها ثم أومأت.

قال: «أخبريني، هل والداك على قيد الحياة؟»

فهزت رأسها: «لا».

قال بجفاء وهو يشعل سيكارة: أنت لا تقولين الكثير، ما اسمهما؟

ـ لم أعرفهما قط.

أخذ يتفحصها مفكراً: ألم تقابلي أليزابيت ستيل قط؟

حدقت إليه وهي تهتف: وكيف كان يمكنني مقابلة أليزابيت ستيل؟

تجاهل السؤال وقال: أين تعيشين؟

فأجابت ساخرة: ألم يخبرك السيد مورلي؟

ـ نعم، ولكن أخبريني أنت.

فزفرت بغيظ:

ـ في ڤاليداون، في منطقة ساسيكس، لا تخبرني أنك سمعت بها.

تجاهل ثورتها هذه مرة أخرى فاغتاظت منه.

ـ كم كان عمرك عندما توفيا؟

ضغطت شفتيها: لا أدري.

ـ هيا تكلمي، متى؟

انتصبت ديبرا في وقفتها، وقالت:

ـ والآن، اسمع. لقد جئت إلى هنا، ودخلت عنوة ثم ألقيت عليّ كثيراً من الأسئلة تلقيت جوابها. والآن، هذا كل شيء، هل تفهم؟

كانت عيناها الخضراوان تلمعان، وبدا عليه الشرود وهو يتأملها ثم هز كتفيه قائلاً بهدوء يكبت ثورة:

ـ اسمعي، أعرف أنني جئت إلى هنا دون دعوة، ثم رحت ألقي عليك أسئلة، ويمكنك أن تقولي بكل صدق بأنك لا تعرفين عما أتكلم عنه.

شعرت ديبرا بالدموع تكاد تسيل من عينيها:

ـ طبعاً يمكنني ذلك. لو كنت أعلم سبب كل هذا، لاستطعت أن أخبرك بما تريد معرفته، لأن من الواضح أنك تريد شيئاً لم تحصل عليه بعد.

تمتم يقول وعيناه تخترقانها بقسوة:

ـ هذا صحيح تماماً، إنني واثق حقاً الآن من تفهمك.

فهتفت وقد تسارع تنفسها: ادخل الموضوع بحق الله.

ـ لا بأس، لا بأس، سأفعل.

ألقى بسيكارته من النافذة، وحدق لحظة في البحر المظلم في الأسفل ثم عاد ينظر إليها قائلاً:

ـ لا بأس يا آنسة وارن. سأخبرك بالأمر مباشرة، قد تكون إليزابيت ستيل والدتك.

ساد الصمت لحظة أطلقت ديبرا بعده ضحكة متوترة وهتفت: لا بد أنك تمزح.

هز رأسه وقال: هل لديك شراب هنا؟

هزت رأسها: كوكا كولا فقط.

مرت لحظة لم تستطع فيها إبعاد نظراتها عنه ثم نظرت إلى المطبخ:

ـ هل أصنع لك قهوة؟

هز كتفيه، ثم قال: «والآن فلنتحدث. ما الذي تعرفينه عن والديك؟»

ـ قبل أن تبدأ بأسئلتك، دعني أسألك عما يجعلك تظنني ابنة اليزابيت ستيل؟ ما هو الرابط في ذلك؟

مدّ يده إلى جيب سترته الداخلي وأخرج محفظة سحب منها صورة ناولها إلى ديبرا بصمت. أخذت تحدق فيها بحيرة. رأت أنها تحدق إلى صورة لنفسها، ولكن وجه هذه المرأة كان أكبر وأنضج.

قالت وهي تتنفس بارتجاف:

ـ الآن فهمت. ومع ذلك من الممكن أن يجد أي شخص شبيهاً له.

أشعل سيكارة أخرى قبل أن يجيب:

ـ هذا ممكن طبعاً، ولهذا أراد إيميت مورلي أن يجري لك اختباراً. أظنه تكهن بأنه لو كان لك قرابة حقيقية باليزابيت لظهر ذلك.

ـ ثم؟

ـ حسناً، فلنقل إن التشابه كان كافياً ليبرر القيام بمزيد من التحريات.

شعرت ديبرا بالارتباك، يا له من حلم مزعج! لقد كان أبواها

www.elromancia.com

إنكليزيين وقد قتلا أثناء طفولتها في حادث تصادم قطار، لذا لا يمكن أن تكون ابنة أليزابيت ستيل.

قالت وهي ترتجف: «هذه سخافة، فقد قتل والداي في حادث تصادم قطار منذ سنين. لو كنت ابنة اليزابيت ستيل، فلما ترعرعت في انكلترا؟ ثم من هي الخالة جوليا؟»

أعاد دومينيك ماكجيل الصورة إلى محفظته، ثم قال:

ـ كانت اليزابيت ستيل إنكليزية ولكنها أدركت نجاحها الباهر في مهنتها في أميركا. من الممكن جداً أن تكون الخالة جوليا شقيقتها.

ـ يبدو ذلك غير ممكن.

ـ أوافقك على ذلك، ولكنني أجد في هذا الأمر أن أبعد الأشياء عن الحدوث يمكن أن يحدث. فيم تفكرين؟ أتتمنين لو أنك لم تذهبي قط إلى استوديوهات أوميغا؟

ـ كيف عرفت ذلك؟

وابتسمت ابتسامة باهتة.

ـ ولكن لماذا؟ فهذا حلم كل فتاة.

ـ لو كان هذا صحيحاً، لماذا لم تربني اليزابيت ستيل بنفسها؟ ولماذا لم أسمع باسمها من الخالة جوليا قط؟

فهز الرجل رأسه: لا أستطيع أن أخبرك بذلك، ليس حالياً. على كل حال، إن مخرج أفلامها آرون جونسون أكثر الناس معرفة بها، وقد يعلم ذلك. وهو، لسوء الحظ، خارج البلاد حالياً حيث يخرج فيلماً في اسبانيا. ولكن عندما يعود...

فقالت ديبرا منتقية كلماتها بعناية:

ـ حتى ولو كان صحيحاً أنني ابنة اليزابيت ستيل، فما الفائدة من معرفة هذه الحقيقة؟

ـ اسمعي يا آنسة وارن، عندما ماتت اليزابيت تركت ثروة صغيرة، ويبدو أنه لم يكن لها أقرباء، ولهذا ما زالت ثروتها محفوظة.

فهزت ديبرا رأسها ببطء:

ـ لا أريد المال.. إذا كان هذا هو الغرض من كل هذه التحقيقات فانس الأمر، فلديّ من المال ما يكفي احتياجاتي.

فقال ساخطاً: «آه، لا تقولي هذا. اسمعي، لا بأس. أظن أن علمك بأن أمك هجرتك منذ ولادتك لم يسرّك، ولكن ليكن لك من التعقل ما تدركين معه أن المال الذي تركته هو من حقك تنفقينه كما تشائين... وهذا ليس كل شيء، إن المخرج آرون على وشك إعادة إخراج فيلم «أڤينيرا». أيمكنك تصوّر مقدار تأثيرك من تلك الناحية؟»

فذهلت: أنا؟ ولكنني لا أستطيع التمثيل؟

فقال باقتضاب: «كل شخص يمكنه أن يكون نجماً سينمائياً».

سألته: «أتظن أنني سأكون أسعد مما أنا الآن؟»

فقال هازئاً: «يا لك من فتاة! لم أر قط امرأة غير فضولية. أتريدين أن تقنعيني بأن بإمكانك العودة إلى بلدتك ڤاليداون ونسيان كل ما أخبرتك به؟ ألن يشغل بالك أبداً أنني ربما كنت على صواب؟»

أشاحت عنه بوجهها، لم تستطع أن تقتنع، فلا يمكن أن تكون ابنة أليزابيت ستيل. لا، إنها لا تستطيع... ولكن أشياء عدة عادت إلى ذاكرتها الآن منها رفض خالتها التحدث عن والديها وكراهيتها البالغة لأميركا وكل ما هو أميركي.

عادت تواجه ماكجيل قائلة: «إذا أنا صدقت كل ما أخبرتني به، فماذا بعد ذلك؟»

فضاقت عيناه: حسناً.. علينا أن ننتظر عودة آرون، وبعد ذلك يعود الأمر إليك. هل بإمكانك أن تنبذي كل شيء من ذهنك؟

شعرت بعينيها تغرورقان بالدموع، ثم قالت وهي ترتجف:

ـ تعلم أنه لا يمكنني ذلك. آه، لماذا جئت إلى هنا؟ بل لماذا رتبت أنا تلك الزيارة إلى الإستديوهات؟

ـ قد يسمّي العرافون هذا «القدر». اهدئي يا صغيرة، فليست هذه نهاية العالم، وقد تكون بدايتك.

حدّقت إليه صارخة:

ـ لكنني كنت سعيدة.. سعيدة... لن تصدقني أبداً، ولكنني لم أخلق لمثل هذه الحياة. لم أشأ قط أن أكون شيئاً غير ما أنا عليه.

ـ معلمة مدرسة؟

ـ لا تلفظ الجملة بهذا الشكل، لأنني أحب العمل مع الأولاد.

ـ ولكنك أنت نفسك تبدين مجرد طفلة.

فقالت ساخطة: «أنا في الثانية والعشرين».

فقال ساخراً: «سن رائعة.. ليتني أعود إلى الثانية والعشرين.

ـ أنت لا تعني ذلك حقاً.

ـ هذا صحيح، ولكنني لم أكن أملك مثل عينيك النديتين البريئتين، حتى في الثانية والعشرين من عمري. يا الله! إن كانت إليزابيت أمك فعليك أن تتعلمي الكثير لتماثليها.

وسار نحو الباب: أظنك في عطلة غداً السبت.

فقالت بسرعة: عليّ.. عليّ أن أحضر مباراة في «البيزبول» بعد الظهر.

فقال متفكهاً:

ـ يا للحياة الراقية! لا بأس، فليكن الأحد، فهذا يمنحك يومين على الأقل لتهدّئي روعك. سآتي لآخذك في الحادية عشرة صباحاً، اتفقنا؟

ـ لماذا؟

ـ أريد أن أريك شيئاً، لا تقلقي يا حلوتي. فقد تجدين متعة ما في كل هذا.

ـ ولكن... واثقة أن هناك المزيد ليقال في هذا الأمر، أعني ما يدريني أنك حقاً من ادعيت شخصيته؟

فقال بابتسامة عريضة: «ليس ثمة من يجرؤ على انتحال شخصيتي يا عزيزتي».

ثم خرج مغلقاً الباب خلفه تاركاً إياها مع أفكارها. هرعت إلى الباب

ولكنها وجدت أن ليس ثمة فائدة من أن تناديه ليعود. إنها مشكلتها وحدها وآلامها هي... ولكن أي نوع من الناس كانت إليزابيت ستيل لكي تهجر وليدتها؟ ألم يداخلها حتى الفضول لرؤية طفلتها؟ ألم تتملكها الرغبة لكي تراها وهي تصبح صبية ثم... وتوقف تفكيرها. فقد ماتت أليزابيت عندما كانت هي في الثانية عشرة، أتراها كانت ستتغير لو أنها عاشت؟ أكان من الممكن أن تعترف أخيراً بابنتها؟

تتابعت الأفكار، لقد كانت اليزابيت ستيل أمها فمن كان أبوها يا ترى؟ أتراها ابنة غير شرعية؟ وهل هذا هو سبب عدم اهتمامهم بأمرها؟ وشعرت بالغثيان... يا إلهي! لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً.

لماذا تصرفت خالتها بذلك الشكل؟ لماذا الادعاء بأن ليس لها أم حتى ولو رفضت تلك الأم الاعتراف بها؟

عندما ذهبت إلى فراشها تلك الليلة، كانت أفكارها ما زالت حيث هي.. شعرت باستياء بالغ من دومينيك ماكجيل لقدومه إلى هنا وتدمير هدوئها النفسي بكل عجرفة وقسوة. كانت تعلم بأنها لم تعرف رجلاً مثله قط من قبل.. يبدو خشناً بارداً ولكنه يصبح حين يبتسم بفتنة صبي صغير، إنها لا تفهم هذا الرجل المتقلب.

تقلبت في سريرها بغضب... مهما كانت نتيجة كل هذا، فدومينيك لا يهتم بها إلا لأنها ابنة إليزابيت ستيل فقط. وهذا يعني أنها ضرورية لإعادة تمثيل فيلمه الشهير «أڤينيرا»... ولهذا عليها أن لا تفكر أبداً وفي أي وقت في أنه صديق لها.

***

٣ ـ الماضي يخيفها

عصر يوم السبت أثناء مباراة «البيسبول»، تملكت ديبرا الدهشة عندما اقترب منها دايڤيد هوليستر مدير المدرسة. كان هوليستر، وهو في أوائل الأربعينات من عمره، رجلاً أعزب، وقد أبدى اهتماماً ودوداً بديبرا منذ وصولها إلى مدرسة «فيلبرت»، رحب بها ودوماً كان يستمع إلى ما تشكو إليه من مشاكل بكل اهتمام.

كانت ديبرا متعودة على سلوك الناظرة الإنكليزية المتمسكة بالقوانين والشكليات لذلك أذهلها أن يناديها باسمها ديبرا منذ البداية، وأن يعرف عن نفسه باسمه الأول دايڤيد.

قال لها:

ـ أظنك ابتدأت تحبين رياضتنا الوطنية.

ـ نعم، خصوصاً عندما يفوز فريقنا، إن «بيت لندسي» في صفي.

فقال المدير مفكراً: «إنه هناك بالطبع، ولكن أخبريني يا ديبرا، ما قصة استديوهات «أوميغا» ودومينيك ماكجيل؟»

هتفت ديبرا وقد فوجئت: هل... هل تعلم؟

ـ طبعاً؟ كيف تظنينهم حصلوا على رقم تليفونك؟

ـ حسناً، من الدليل كما أظن، أتعني أنهم اتصلوا بك؟

ـ تماماً، فهذه أسهل طريقة. على كل حال، ما الذي كان يريد قوله لك، أم أن الأمر خاص لا يجوز أن أعرفه؟

ـ آه، لا.. حسناً، ما الذي أخبروك به في الواقع؟

ـ اتصل دومينيك ماكجيل بي طالباً الاتصال بك، ذاكراً شيئاً عن إجراء اختبار لك على الشاشة في الإستديو؟ هل حدث ذلك أثناء تجوالكم في أنحاء الاستديو؟

إحمر وجهها غضباً: «لا بالطبع. لا بد أنك تظنني مراهقة مهووسة بخشبة المسرح».

أطلق المدير ضحكة قصيرة جافة:

ـ لا يا عزيزتي، ولكن يجب أن أعترف بأنني تضايقت عندما علمت أن موظفة عندي أجري لها اختبار على الشاشة.

أجابت بسرعة:

ـ لقد أُرغمت على ذلك في الواقع. فالسيد إيميت مورلي، وهو أحد المديرين...

فقاطعها بجفاء: سبق أن سمعت باسمه.

ـ حسناً، قال السيد مورلي أمام الأولاد جميعاً إنه يريد أن يجري لي اختباراً. وبطبيعة الحال، كانت الخيبة ستتملكهم لو رفضت.

أومأ يقول: «نعم، هذا مفهوم، ولكن مع ذلك كان يجب أن يخطر ببالك أن عملاً كهذا غير منتظر منك».

ـ أعلم، أعلم، وأنا آسفة.

وعضت شفتها.

ـ وهل هذا كل شيء؟ مجرد اختبار؟

ازداد احمرار وجه ديبرا. لم تكن تريد أن تخبره بكل شيء... ليس الآن، فقد لا يكون هذا صحيحاً، كما أن هذا ليس من شأنه مهما كان اهتمامه بها فقالت: حسناً، هذا ما أظنه.

أخذ دايڤيد هوليستر يتفحص ملامحها المضطربة:

ـ دومينيك ماكجيل، مؤلف كثير من المسرحيات والأفلام. وهو يعيش حياة مختلفة عن الحياة التي تحيينها.. هذا الرجل يزعج نفسه في طلب اسمك ورقم تليفونك من مدير المدرسة لا لشيء إلا لأنه أجري لك

اختبار على الشاشة يبدو أنه كان ناجحاً. يا عزيزتي ديبرا، العقل يرفض هذا.

أخذت ديبرا تحدق في أظافرها بتعاسة:

ـ أرجوك يا سيد هوليستر.. لا تسألني أكثر من ذلك الآن. أعترف بأن هناك المزيد، ولكنني في هذه اللحظة فقط لا أريد أن أقول أكثر.

بدا شيء من الغيظ على ملامحه، ولكنه هز كتفيه ومرّ بيده على شعره البني اللامع، ثم قال:

ـ لا يمكنني إرغامك على ذلك، ولكنني لو كنت مكانك لفكرت في أن أكون حذراً قبل التورط مع رجل مثل السيد ماكجيل. عندما تقابلينه ستفهمين ما أعنيه.

أرادت أن تخبره عن زيارة ماكجيل لها الليلة الماضية:

ـ آه، ولكن..

ثم سكتت.

فتابع هوليستر يقول وقد أخطأ فهم ما كانت تريد قوله:

ـ ستقولين إن بإمكانك رعاية نفسك. لكن الحقيقة يا ديبرا أن عالم الأفلام هو غابة كبيرة جداً مليئة بالوحوش. إنها قاتلة أو مقتولة. وبصراحة، لا أظنك تنسجمين في حياة كهذه.

ابتسمت ديبرا ولم تقل شيئاً.

قدّم إليها سيكارة، ثم قال: «أريد منك أن تعتبريني صديقاً ترجعين إليه إذا وجدت نفسك في مشكلة».

فقالت شاعرة بالجميل: «شكراً».

ـ حسناً، كوني حذرة وتذكري ما قلته لك، فمهما كان إغراؤهم لك كبيراً لا تدعي ذلك يضلّلك.

ـ لن.. لن أفعل.

أخذت تتمتم بذلك متمنية لو يسكت، ولكنه بدلاً من ذلك، عاد إلى موضوع دومينيك ماكجيل فسألها:

ـ أخبريني، هل تعرفين الكثير عن ماكجيل؟

أجابت: لا شيء تقريباً.

ـ تذكري إذن أنه، بصفته وحش غابة، ليس ثمة من هو أخطر منه.

وضعت ديبرا سيكارتها في فمها تتفادى الجواب، فرمقها بغيظ وقال:

ـ أعرف ما أقول. إنه دون ضمير، لا أخلاقي ولا مبالي. فالصحف لا تتركه وشأنه.

قال ذلك بكراهية بالغة جعلت ديبرا تتساءل عما إذا لم يكن هذا حسداً منه لماكجيل ولحياته التي يعيشها.

نظرت إلى هوليستر مترددة: إذا كنت تظنه يهتم بي شخصياً، فأنت مخطىء جداً. الأمر... الأمر ليس شخصياً بالضبط.

وطبعاً زاد هذا من فضول دايفيد هوليستر.

ولاحظت هي ذلك، لذا أسرعت تغير الموضوع فأخذت تتحدث عن أنواع الرياضة في انكلترا وخصوصاً كرة القدم الإنكليزية التي تزداد شعبية في أميركا. ولم يكن أمام دايفيد هوليستر من خيار سوى مجاراتها في ذلك.

في ذلك المساء، ذهبت ديبرا إلى السينما مع «مرغريت ستيفانز»، المعلمة التي تعطي دروساً في الموسيقى والتمثيل. مرغريت فتاة في أواخر العشرينات من عمرها، وهي غير متزوجة حالياً لكنها كانت متزوجة وطلقت منذ سنوات. كانت لاذعة اللسان بالنسبة للرجال، ولكن ديبرا لم تكن تأخذ تعليقاتها على الرجال بشكل جاد.

ولأن مرغريت لم تسمع شيئاً عن اختبار الشاشة الذي أجري لديبرا، فقد تعمدت هذه أن تبعد كل الأفكار المتعلقة بهذا الأمر خارج ذهنها لعدة ساعات. كان الفيلم بوليسياً مثيراً بشكل استولى على أفكارها رغم أنها أجفلت عندما قرأت أن قصة الفيلم بقلم دومينيك ماكجيل.

ذهبتا بعد ذلك إلى الكافيتيريا حيث تناولتا القهوة والشطائر وتحدثتا عن الفيلم. وعندما عادت ديبرا إلى شقتها كانت تشعر بتعب لذيذ. ولكنها

ما إن استقرت في سريرها حتى عادت بها الأفكار إلى المشكلة الأساسية، وأمضت ساعات حائرة. . وأخيراً، غلبها النعاس فاستسلمت إلى نوم عميق لم تستيقظ منه إلا بعد العاشرة.

تذكرت أن دومينيك ماكجيل آتٍ في الحادية عشرة لكي يأخذها إلى. . . إلى أين؟ هزت رأسها ونزلت من سريرها واغتسلت بسرعة ثم ارتدت «طقماً» ضيق التنورة من التويد البرتقالي الذي ناسبها وناسب شعرها الداكن وبشرتها المسمرّة قليلاً، كان جميلاً للغاية. تركت شعرها منسدلاً حول وجهها، كانت تنهي كوب قهوتها الثالث عندما رن جرس الباب فابتلعت القهوة بسرعة حتى كادت تشرق بها وعندما كانت تسير نحو الباب أدركت أنها نسيت وضع الزينة على وجهها.

كان دومينيك ماكجيل ينتظرها في الخارج، وقد بدا طويل القامة في بذلته التبنية اللون وقميصه السكري وربطة عنقه البنية، أما شعره القصير فقد بدا أشعث قليلاً بفعل النسيم في الخارج.

قال: «مرحباً. . أنت جاهزة إذن. خلتك ستغيرين رأيك في آخر لحظة».

ألقت ديبرا عليه نظرة خاطفة وقد أعجبها ما رأت، ثم قالت:

ـ دقيقة واحدة لكي أضع شيئاً من الصباغ على شفتي.

رفع كتفيه وقال ملوحاً بالمفاتيح:

ـ لا بأس، إنما بسرعة.

انزعجت لحظة من لهجته، وفتحت حقيبة الزينة تخرج منها أحمر الشفاه وبعدما انتهت حملت حقيبة يدها وقالت: «أنا جاهزة».

وقف جانباً لكي تتقدمه، فهبطت السلم وهي تشعر به خلفها. وفي الخارج، كانت سيارة دكناء الخضرة تقف في منطقة علقت فيها لوحة تقول (ممنوع الانتظار). فتح ماكجيل لها الباب، وسحبت نفساً عميقاً ثم دخلت، ولم يكلف ماكجيل نفسه عناء النظر إليها عندما استولى إلى المقود.

لكنها دهشت لأنها شعرت بالراحة وهي بجانبه. أخذ يسوق بسرعة وبخبرة، حتى إن الهبوط من أعالي التلال إلى الميناء لم يشعرها بالخوف. نظرت إلى يديه السمراوين الرشيقتين على عجلة القيادة، كانتا صلبتين طويلتي الأصابع، وهذا ما جعلها واثقة من قوتهما البالغة أيضاً. لم تكن شخصيته توحي بأية رقة وتساءلت عما حدثها به دايڤيد هوليستر عنه. واستطاعت أن ترى أن هناك نساءً لا يستطعن مقاومة تأثيره، نساء يعجبهن الرجل القاسي الذي يعاملهن وكأنهن متاع له.

ارتسمت على شفتيها ابتسامة خفيفة وقد أدهشتها أفكارها، ولمح هو ذلك منها، فسألها: «ما الذي يضحكك؟»

فهزت رأسها وقد احمر وجهها:

ـ لا شيء في الواقع. . . ما. . ما نوع هذه السيارة؟

اجتاز منعطفاً حاداً، ثم انعطف إلى الطريق الرئيسي قبل أن يجيب:

ـ إنها «فيراري». . . هل سمعت بها؟

غصت بريقها وهي تقول: طبعاً.

مهما حدث فسيبقى لديها ما تتذكره عندما ينتهي كل هذا. وتابعت كلامها:

ـ هل. . هل سرعتها فوق المئة؟

ابتسم ساخراً: «حوالى ذلك».

لكنه عاد فقال: «بالتأكيد، إنها أسرع من ذلك بكثير. أتريدين أن أريك ذلك؟»

ـ آه، لا، شكراً لك.

ونظرت من النافذة. كان اهتمامها منحصراً في المكان الذي يقصدانه، وتمنت لو يخبرها الآن بدلاً من تركها تتساءل. لم تذهب قط إلى خارج المدينة، لذا كان اتجاهاً جديداً عليها تماماً. كان يقود السيارة في شارع رئيسي يمتد بمحاذاة المحيط الذي كانت أمواجه العاتية تتكسر على الشاطئ أسفل بينما زرقة السماء تمتزج بالأفق. ترك دومينيك ماكجيل

النوافذ الأمامية مفتوحة، واتكأت على حافة النافذة شاعرة بالسعادة. كان نهاراً رائعاً.

بعد ابتعاده ساعة عن سان فرانسيسكو، ترك الطريق الرئيسي إلى طريق متفرع يلتف حول التلال، ثم انعطف إلى اليسار حيث تحفّ الأشجار. فنظرت ديبرا إليه: إلى أين نحن ذاهبان؟

نظر إليها وقال بتكاسل:

ـ لا تقولي إنني أثرت اهتمامك أخيراً.

فقال بشبه ابتسامة: «لقد حدث هذا حقاً، إلى أين تأخذني؟»

قال ضاحكاً: انتظري عدة دقائق وسترين.

مرة أخرى شعرت بابتسامته الصبيانية تأسرها. أشاحت بوجهها عنه، ها هي تتصرف بحماقة مرة أخرى إذ تسمح له بأن يؤثر في مشاعرها بهذا الشكل.

تعرجت الطريق بين أشجار السرو. ومن خلال بوابة حديدية واسعة صعدا إلى طريق نبتت فيها الأعشاب الطفيلية والشجيرات البرية المزهرة. كان هذا رائعاً ذات يوم، وما زال هناك دلائل على وجودٍ سابق لحدائق جميلة، ومسبح فارغ غطته الطحالب قد أحاطت به فسيفساء رائعة باهظة الثمن.

ثم ظهر المنزل أمامهم... قديم الطراز في باحته القاتمة نافورة.. أوقف دومينيك السيارة وخرج منها، وقبل أن تخرج ديبرا، فتح الباب وساعدها على الترجل. نظرت إليه قائلة: «أرجو منك أن تخبرني الآن أين نحن».

صعد دومينيك ماكجيل إلى الشرفة وفتح الباب على ردهة واسعة، ثم أشار إلى ديبرا لتتبعه.

ابتسم وهو يقول بتهكم: «مرحباً بك في منزل أليزابيتا».

بدت الحيرة على ديبرا: اليزابيتا؟

ـ نعم، كان هذا مخبأ اليزابيت ستيل الخاص.

ارتجفت ديبرا قليلاً، ثم صعدت الدرجات كارهة ثم ترددت لحظة قبل أن تدخل إلى الردهة المعتمة. ما زالت النوافذ مغلقة ولكن ماكجيل تقدم إليها يفتحها سامحاً لأشعة الشمس بالتدفق لتمحو كل ظلال الماضي.

ـ كنت أعتقد أن الممثلين يعيشون في هوليوود.. في ضاحية بيڤرلي هيلز..

هز دومينيك كتفيه: هذا صحيح. حتى أليزابيت كان لها منزل في شارع «ويلشاير»... ولكنها كانت تأتي إلى هذا البيت عندما كانت تبحث عن الوحدة والانفراد بنفسها، وقليلون هم الذين عرفوا عنوانه. تعالي لأريك سبب حبها له.

دفع باباً يؤدي إلى غرفة استقبال مستطيلة، كانت أشبه بمأوى الأشباح، تحتوي على أثاث مغطى بملاءات بيضاء تكسوها طبقة سميكة من الغبار وبيوت العنكبوت معلقة في كل مكان. فأخذت ديبرا تزيحها من أمامها عابسة... ثم فتح دومينيك باباً آخر يؤدي إلى شرفة تطل على الناحية الغربية. رأت ديبرا مقاعد من الخيزران على الشرفة، تدل على أن ثمة من كان يجلس عليها يوماً ما.. من هنا امتد المحيط الباسيفيكي تحتهم أشبه بحرير أزرق ذي حواشٍ من الدانتيلا البيضاء، يشكل منظراً رائع الجمال. ولم يكن لدى ديبرا شك في أن منظر الغروب عند المساء أجمل مما هو الآن، وكانت فكرة أن المرأة التي كانت تجلس على هذه الشرفة قد تكون أمها، فكرة غريبة مخيفة.

بدا دومينيك ماكجيل تائهاً في أفكاره وهو يحدق في هذا المنظر وكأنه يسترجع ذكرى أيام كانت فيها الأمور غير ما هي عليه الآن. خطر ببالها لحظة أن تتساءل عن مقدار معرفته باليزابيت ستيل. لقد كانت طبعاً أكبر منه سناً بكثير، خمسة عشر عاماً على الأقل. ولهذا افترضت أنهما كانا مجرد معارف يجمعهما العمل.

نظر إليها الآن، وما إن رأى ملامحها المتوترة حتى سألها بلطف:

ـ هل يزعجك هذا؟ أعني القدوم إلى هنا.

فنظرت إليه:

ـ أينبغي هذا؟ على كل حال، حتى لو كانت أمي فهي لم تهتم بي قطُّ.. فلماذا أهتم بها؟

ـ لماذا كل هذه الشكوك؟ كلما رأيتك ازداد اقتناعي بأن مورلي على صواب. فأنت تشبهينها إلى حد لا يصدّق.

ـ وكيف تعرفني؟

فبدا عليه السأم:

ـ هيا، أنا لا أعرفك كإنسان.. من الطبيعي أن يكون لك شخصيتك الخاصة. هنالك أشياء أخرى أقل تعقيداً، تربطكما معاً بشكل ما: كيف تبدوان أثناء الغضب، الطريقة التي تلويان فيها أصابعكما معاً، طريقتكما في المشي وتحريك الرأس.. ثمة أشياء كثيرة غير هذه يا ديبرا.

ضغطت ديبرا شفتيها وقد أزعجها أن ينطق باسمها الأول... عادت إلى الردهة ثم نظرت إلى السلالم الصاعدة إلى الطابق العلوي.

جاء خلفها دون أن تنتبه، لذا أجفلت عندما سمعت صوته يقول:

ـ أتريدين أن تري غرفة أمك؟

حملقت فيه قائلة: «قد لا تكون أمي، ثم لا، فقد رأيت ما يكفي. لماذا أحضرتني إلى هنا على كل حال؟ إنه مكان كئيب للغاية».

أجاب وهو يعود فيقفل مصاريع النوافذ في الردهة:

ـ لم يكن كذلك في حياة اليزابيت.

خرجت ديبرا إلى أشعة الشمس مسرورة، ثم سألته: «لماذا لم يبيعوا البيت؟»

أجاب وهو يقفل الأبواب:

ـ ومن سيبيعه؟ لم يكن لها وريث، لقد بقي كل شيء كما هو خصوصاً وأن آرون كان رجلاً عاطفياً.

اتكأت ديبرا إلى السيارة، ولكنها عادت فاستقامت عندما قال

دومينيك إنها مغبرة بعد الرحلة، ثم قبلت منه سيكارة قدمها إليها:

ـ أخبرني شيئاً، إذا كانت اليزابيت ستيل أمي حقاً، فمن هو أبي؟ هل أنا غير شرعية؟

أخذ دومينيك ينفث الدخان بتكاسل، ثم ابتسم:

ـ غير شرعية؟ يا لها من كلمة فظيعة! هل لهذا أهمية لديك؟

غصت ديبرا بريقها: نعم.

ـ لماذا؟ فأنت غير مسؤولة عن ذلك؟

ـ هذا صحيح، ولكنها وصمة عار على الدوام.

قال مستهزئاً: هذه مجرد تخيلات.

فانفجرت فيه غاضبة: تظن أن بإمكانك أن تخبرني بأيّ شيء، وعليّ القبول به.. طالما ظننت أن أبويّ قتلا في حادث قطار وكم أتمنى لو أن هذا ما حدث.

ـ آه، كوني ناضجة.

ـ من المؤكد أن لديك فكرة ما. إذا كان لهذه المرأة طفل، فسيعلم الناس بذلك.

أومأ يقول: «وهذه هي النقطة الوحيدة المعارضة لهذا الزعم. إن كل ما يتذكره إيميت مورلي هو أن اليزابيت كانت تعمل باستمرار حتى سنة ١٩٧٥ حيث أخذت إجازة لستة أشهر بناءً لأوامر الطبيب.

ابتسم ببطء وهو يتذكر، فنظرت إليه باستغراب.

ـ كم عمرك، يا سيد ماكجيل؟

ـ تسعة وثلاثون، لماذا؟

أجابت وهي تتمشى إلى جانب البيت حيث المنظر الرائع:

ـ من قبيل الفضول.

ثم رفعت بصرها إليه لحظة تنظر في عينيه. كانتا داكنتي الزرقة.

قالت وكأنها تحدث نفسها:

ـ كنت في السابعة عشر سنة ١٩٧٥ . هل . . هل كنت تعمل حينذاك في هذا المضمار؟»

أجاب باختصار:

ـ كنت في البداية، والآن، هيا بنا نذهب! سنتناول غداءنا في مطعم «سان جوزيه»، ثم نمر بطريقنا في وادي «سانتا كلارا» . . إن أشجار الفاكهة قد أزهرت الآن والمنظر هناك رائع الجمال.

عادت ديبرا إلى السيارة . . نظرت إليه:

ـ لم تخبرني لماذا أحضرتني إلى هنا.

ـ أظنني أردت أن أراك هنا، وبعد، فما هذا إلا جزء صغير مما سترثينه لو كنت حقاً ابنة اليزابيت ستيل. ما زال هناك المنزل في هوليوود، وهو في حالة ممتازة لأن خدمها ما زالوا فيه. إن «آرون» يدفع رواتبهم. لم يغلقوا المنزل قط، كان موتها غير منتظر على الإطلاق.

هتفت ديبرا وهي تبحث في حقيبتها عن سيكارة: لا أدري ماذا أقول.

سألها وهو يراها تبحث: عمّ تفتشين؟

ـ عن سيكارة.

أخرج علبته الذهبية وقدمها إليها، فأخذت واحدة منها شاكرة، ثم قال:

ـ والآن أخبريني عن حياتك في إنكلترا.

تنهدت: «ليس هناك الكثير ليقال. حياتي فارغة هادئة حتى الآن. أعلّم في مدرسة «قاليداون» الثانوية، وأعيش مع الخالة جوليا، وهذا كل شيء».

هز رأسه: وهل أنت قانعة؟

ـ أظنني كذلك. أحب القراءة والموسيقى الكلاسيكية، وهذا يسليني.

أطلق ضحكة قصيرة، وقال: يا لها من حياة!

أخذت ديبرا تدخن بصمت، راضية بالنظر من النافذة، بينما السيارة

تنساب بهما بسرعة بالغة. ألقت نظرة على مسجل السرعة ثم حملقت فيه غير مصدقة، وعندما رأت التصميم على وجهه، قررت أن لا تقول شيئاً.

تغدّيا في مطعم فندق صغير في ضاحية المدينة وهو مكان رائع تنتشر فيه «كابينات» حول بركة السباحة، توفر للزبائن أمكنة منعزلة. كان للمطعم أرضية زجاجية فوق حوض أسماك هائل الحجم يمكن رؤيته. نظرت ديبرا حولها مذهولة وهي تتبع دومينيك والنادل إلى مائدة في إحدى الزوايا . . كانت مائدتهما بقرب جدار زجاجي يشرف على بركة السباحة، والطريق العام خلفها.

أخذا يتفحصان قائمة الطعام ولم تعرف ديبرا ما تختاره من هذه الأنواع الكثيرة المثيرة. نظر إليها دومينيك من فوق قائمته بابتسامة عريضة:

ـ حسناً، هل قررت ما تريدين؟

هزت رأسها وقد أعجبتها خطوط الهزل حول عينيه.

ـ هل لك أن تختار لي أنت؟

نظر إليها لحظة ثم عاد ينظر في القائمة:

ـ حسناً، سنطلب عصير «الأفوكاتو»، بفتيك «وسوفليه» الليمون. هل يعجبك هذا؟

وضعت ديبرا قائمتها جانباً:

ـ هذا رائع تماماً.

وقبلت سيكارة أخرى منه وهي تقول: «هذا مكان رائع، أليس كذلك؟»

فقال ساخراً: لا بأس به . . إن إرضاءك سهل.

احمر وجهها، فعض شفته قائلاً:

ـ آسف، فما قلته ليس لطيفاً.

لم تجب ديبرا، ولكن وجنتيها بقيتا ممتقعتين، لا بد أنه يعتبرها فتاة قديمة الطراز ومختلفة تماماً عن النساء اللاتي اعتاد مرافقتهن. إن

تصرفاتها أشبه بتصرفات مراهقة لم تتناول الطعام قط خارج بيتها.

أمعن دومينيك النظر في ملامحها. كان وجهها بالغ التعبير رغم عدم إدراكها ذلك، كما أنها لم تكن تدرك كم تبدو جميلة في طقمها البرتقالي وشعرها الناعم الداكن ينسدل حول وجنتيها كستار من الحرير.

كان الطعام لذيذاً، ولكن ديبرا تعمدت عدم إظهار إعجابها به. وفي هذه الفترة لم يتحدثا كثيراً ولكنه نظر إليها الآن بحزم وسألها:

ـ هل أعجبك الطعام؟

أجابت محاولة التركيز على السؤال: كثيراً جداً.

ثم سكتت وهي تشعر بالتعب. قال وهو ينظر إلى ساعته:

ـ إنها الثالثة والنصف فهل نذهب؟

عندما أصبحا في السيارة قال لها:

ـ أظن أن خالتك امرأة مليئة بالمرارة.

ـ لماذا؟

هز كتفيه:

ـ أظنها عاملتك معاملة قاسية ولعلّ السبب غيرتها من أليزابيت ستيل هذا إذا كانت أختها حقاً.

ـ ما مقدار معرفتك بالبيزابيت ستيل؟

ـ عرفتها ما فيه الكفاية، هل نذهب؟

عند المغرب أنزلها أمام شقتها في سان فرانسيسكو. أرادت أن تسأله عما سيحدث الآن، ولكنه كان قد التزم الصمت طوال الرحلة من المطعم. وكان أن أخذت تنظر إلى السيارة الخضراء القوية وهي تبتعد، ثم سارت داخلة إلى المبنى حيث شقتها. كانت نقرات القيثارة من الشقة التي فوقها تتجاوب مع نبض الصداع في رأسها، وشعرت بالتعاسة والاكتئاب كما لم تشعر من قبل.

***

٤ ـ المعلمة تتعلم

مضى أسبوع تقريباً لم تسمع ديبرا فيه شيئاً حتى ابتدأت تعتقد أن كل ما حدث كان مجرد تخيلات، وأنها إنما كانت تحلم، لولا أن ذكرى دومينيك ماكجيل وحدها أخذت تبعث الاضطراب في توازن مشاعرها.

صباح الجمعة، أرسل المدير دايڤيد هوليستر بطلبها، وكانت تمضي فترة استراحة، فوضعت كتبها جانباً وتساءلت عما قد يريد قوله لها. تمنت أن لا يعود إلى الحديث عن اختبار الشاشة ذاك.

عندما وصلت إلى باب المدير، أدخلها إلى مكتبه وقد بدا عليه التفكير العميق. اتجهت نظراتها إلى رجل طويل القامة عريض الكتفين يقف قرب النافذة. كان ذا بشرة سمراء، وشعر أسود غلب عليه الشيب، وكانت ملامحه وسيمة بالغة القوة وبدا لها أنه في الستينات من عمره.

حدّق الرجل فيها بدوره، ثم هز رأسه بحيرة وعدم تصديق وتمتم وكأنما يحدث نفسه:

ـ دومينيك على صواب. يا إلهي، ما أغرب هذا!

نظر المدير دايڤيد هوليستر إلى ديبرا مؤنباً وهو يقول:

ـ هذا هو السيد آرون جونسون يا ديبرا. إنه يعتقد أنك ابنة اليزابيت ستيل.

تنهدت ديبرا:

ـ أحقاً؟ آه، حسناً، أظنه أخبرك أيضاً أن ذلك سبب كل تلك الضجة التي حدثت يوم ذهبت إلى الاستديوهات.

ـ نعم، فعل ذلك. لماذا لم تخبريني يا ديبرا عندما سألتك؟ كان يمكنك الإفضاء إلي بذلك بكل تأكيد.

بدأت تقول: «آه، يا دايڤيد...».

ولكن آرون جونسون تقدم منها وأمسك بيدها متجاهلاً الرجل الآخر، ثم قال:

ـ ديبرا، يا عزيزتي. هل لديك فكرة عن السرور الذي بعثته رؤيتك في نفسي؟ لقد كانت اليزابيت... حسناً، لم يكن لها شبيهة. ورؤيتي لك الآن... بعد أن اعتقدت حين ماتت اليزابيت، أنني لن أرى مثلها أبداً... رؤيتي لك سرتني بشكل لا يوصف. لدينا الكثير لنقوله لبعضنا البعض، والكثير لنفعله.

تحركت ديبرا باضطراب: من المؤكد أنك تدرك أن كل ذلك ما هو إلا تخمين يا سيد جونسون. أعني أن السيد ماكجيل لا بد أطلعك على الوقائع، فأنا لا أعلم شيئاً عن اليزابيت ستيل. فقد ربتني خالتي على الاعتقاد بأن أمي وأبي قتلا في حادث تصادم قطار عندما كنت طفلة، وقد تكون هذه هي الحقيقة. إن لكل إنسان شبيهاً كما تعلم.

هز آرون جونسون رأسه:

ـ يا عزيزتي، هنالك أكثر من مجرد الشبه بينكما. لقد أخبرني دومينيك بكل شيء.. ولكنه دعمه برأيه في أنك تشبهينها في أمور كثيرة أخرى، ومعرفته الجيدة باليزابيت تجعلني أقبل بما يقوله حتى يثبت العكس.

عادت ديبرا تتنهد قائلة:

ـ بصراحة، كل هذا يبدو لي جنوناً.. لا يمكن أبداً أن أكون ابنة تلك المرأة. وإن فرضنا أنني ابنتها حقاً فما أهمية ذلك؟

رفع آرون جونسون يده محتجاً:

ـ ديبرا، ديبرا، اهدإي، إسمعي، أريد منك أن تأتي معي الآن. إنني مدعو إلى الغداء اليوم في فندق «رويال باي» وأريد منك أن تأتي معي. لا

أستطيع أن أتخلف عن هذا الموعد، ولكن بإمكاننا أن نتحدث أثناء الطعام، يجب أن أعلم المزيد عنك. ستسمح لها بالذهاب يا سيد هوليستر، أليس كذلك؟

قالت ديبرا: آه، لكن...

ولكن المدير أسكتها بقوله:

ـ طبعاً، وإن لم تشأ الآنسة وارن العودة إلى التعليم عندنا، يتوجب عليّ إبلاغ مجلس الإدارة..

فهتفت ديبرا:

ـ أرجو منك أن لا تفعل هذا يا سيد هوليستر، امنحني بعض الوقت.. فأنا واثقة من أن كل هذا جنون.

فقال عابساً: وهل ستعودين بعد ظهر اليوم لتعليم صفك؟

ـ نعم...

لكن آرون جونسون تدخل قائلاً:

ـ لا، لا.. إنها لن تعود هذا النهار. دع عملها قائماً إذا شئت، ولكن لو ثبت أنها ابنة اليزابيت ستيل فسيكون أمامنا عمل كثير.

نظرت ديبرا إلى جونسون ساخطة:

ـ إنها حياتي أنا تلك التي تشوّشها.

ـ أعلم هذا، وستشكرينني لهذا العمل.

أسرع بها إلى الباب وهو يقول:

ـ المعذرة يا سيد هوليستر، ولكننا تأخرنا.

التفتت ديبرا إلى الخلف تنظر إلى المدير ضارعة: «أنا آسفة يا دايڤيد، ولكن ماذا بمقدوري أن أفعل؟»

هز المدير كتفيه: لا شيء، حسناً يا ديبرا، سنراك صباح الاثنين.

أحضرت ديبرا معطفها وصعدت مع جونسون إلى مقعد سيارته الخلفي..

مال إلى الأمام يعطي عنوانها لسائقه، ثم قال لها: «ستغيرين ملابسك

طبعاً.

بدا الغيظ عليها:

ـ وهل لديّ أي خيار؟ في الحقيقة يا سيد جونسون، أنا لا أحب هذه المعاملة. إنني بشر ولست ماكينة كما تعلم.

نظر إليها بثبات، ثم قال:

ـ سأخبرك بشيء الآن. ولدت سنة ١٩٧٥، أليس كذلك؟

أومأت بالإيجاب.

ـ علمت أن اليزابيت أصيبت سنة ١٩٧٥ بانهيار عصبي أو هكذا قيل، فسافرت إلى انكلترا للعلاج. ولأننا أنجزنا لها فيلمين، فقد استطعنا توزيعهما أثناء مدة غيابها لكي نخفي ذلك عن الصحافة.

غصت ديبرا بريقها: آه يا إلهي.

ـ نعم، وليس هذا كل شيء.

فقالت باهتمام تام الآن وقد اتسعت عيناها: ماذا غير ذلك؟

سحب آرون جونسون نفساً عميقاً وبدا لحظة وكأنه كبر في السن، ثم قال:

ـ هنالك شيء لم يكن معروفاً تماماً، وأخبرك به الآن لأنني أظن عليك أن تعلمي. سنة ١٩٧٥ كنا أنا واليزابيت متزوجين.

ضربت ديبرا خديها براحتيها وهتفت:

ـ ماذا؟ آه، هل.. هل يعلم دومينيك ماكجيل ذلك؟

ـ أنني كنت زوج إليزابيت؟ لا.. لأنها لم تشأ قط أن تعلنه بعد أن نالت غايتها مني.

حملقت ديبرا فيه: ما معنى هذا؟

هز كتفيه وهو يطلق ضحكة قصيرة جافة:

ـ معنى هذا يا عزيزتي أن إليزابيت ستيل تزوجتني لكي تحصل على ما تريده من شهرة وثروة، والفرصة لكي تظهر موهبتها الكبيرة في تمثيل أفلام تستحق هذا الاسم.

هتفت ديبرا وقد صدمت: آه يا سيد جونسون!

قال بشبه ابتسامة:

ـ لا تأسفي عليّ، لأنني كنت أعلم ما أقوم به، وعندما كانت ترافق الشبان الأصغر سناً، كنت أغمض عيني عن خياناتها، فقد كانت موهبتها بالنسبة إلى مخرج مثلي، تجعل من الفيلم الذي تشترك فيه أمراً رائعاً لا يضاهيه شيء. كانت أشبه بالأحلام، وكنت أعبدها.

ثم نظر إلى ديبرا بثبات وهو يقول:

ـ إذا كنت ابنة اليزابيت، فأنت ابنتي أيضاً، ولهذا لن أصفح عنها أبداً. يمكنني أن أرى السبب طبعاً، فالأولاد يجعلون الممثلة تبدو كبيرة في السن.. وبالنسبة إلى اليزابيت.. كان جمالها وصباها يعنيان كل شيء بالنسبة إليها. علينا طبعاً أن نعثر على الحقيقة، ولكنني مقتنع الآن بأنك ابنتي، ابنة إليزابيت.

شعرت ديبرا وكأنها تريد أن تصرخ.. لقد أمضت أسبوعاً حافلاً بالشكوك انتهى بهذه المكاشفة عن حقيقة أبويها فكان ذلك أشبه بسكاكين تعذبها. تملكها شعور عنيف بالعطف على هذا الرجل الذي أحب اليزابيت ستيل إلى الحد الذي جعله يبقيها معه رغم كل المذلة التي كان عليه احتمالها.

نظر جونسون إليها بحنان بالغ وقال:

ـ وهكذا ترين أنّ لي الحق في أن يكون لي رأي في هذا الأمر.. أريد أن أعلم الحقيقة مثلك، والآن، وقد وصلنا إلى شقتك، فهل ستدعينني إلى الدخول؟

وابتسم. فأومأت تبادله ابتسامته:

ـ طبعاً يا سيد جونسون.

قال وهما يصعدان السلم:

ـ الأفضل أن تناديني باسمي الأول (آرون)، إن إسم الأسرة السيد جونسون يبدو بارداً متكلفاً.

عادت تبتسم وهي تدخل المفتاح في القفل:

ـ لا بأس يا آرون.

في ذلك اليوم الحافل عرفت المخرج الشهير تماماً وانسجما في الحديث بسهولة. وسرعان ما أدركت أنها روت له كل قصة حياتها، كما أخبرها هو الكثير عن نفسه وعمله وعن اللغز الذي كان يسمّى إليزابيت ستيل، كذلك تحدث كثيراً عن دومينيك ماكجيل، فعلمت ديبرا أنه يحبّ ذلك الرجل.

عندما انتهى الغداء، أخذها آرون إلى شقته التي كانت تشرف على منظر المحيط بشكل سحر ديبرا. الشقة تختلف عن أي شيء رأته من قبل. الأبواب كلها تنزلق على عجلات مزيتة، وتتحرك ميكانيكياً بالأزرار. كانت الرفاهية فوق التصديق، الأرائك الوثيرة المغطاة بجلود ذئاب حقيقية، والسجّادات المختلفة الألوان. كان لديه خادمان بالإضافة إلى سائقه الخاص. أخبرها أنهم يقيمون في شقة مختلفة متصلة بشقته، ولا يسكن معه سوى خادمه الخاص وهو عملاق يدعى بارناباس يمكنه، كما قال آرون، القيام بكل شيء، من الطهي إلى التنظيف إلى الغسيل.

شعرت ديبرا بالراحة وكأنها في بيتها. ولم تعرف ما إذا كان السبب في ذلك هو ذلك الخيط المحتمل من القرابة بينهما. ولكنها أدركت أنها أحبته وأن بإمكانها الشعور بالراحة معه. أدار لها الستيريو بينما ذهب ليصنع القهوة. في هذا الوقت، خلعت حذاءها وتكورت على الأريكة وأشعلت سيكارة. وعندما رجع آرون ابتسم قائلاً برقة: «تبدين وكأنك في بيتك، يا ديبرا. ليس لديك فكرة كم أتمنى لو تكوني ابنتي وابنة إليزابيت حقاً».

نظرت إليه بحنان: «لماذا؟»

فتنهد: «كنت أحب إليزابيت أكثر من أي شيء آخر في العالم. لم يكن لها مثيل... لم يستطع أحد أن يأخذ مكانها.. إنما الآن... إذا كنت ابنتها.. فستتغير الأمور، وسيكون هذا رائعاً».

ـ وإذا كنت ابنة اليزابيت، فما الذي تتوقع مني أن أفعل؟

بدت الحيرة على وجهه: لا أفهمك.. ماذا تعنين؟

فبدا عليها الاضطراب: «آرون، يبدو أنك نسيت الخالة جوليا؟ إنها القريبة الوحيدة التي أعرفها. ثم شقتك هذه.. إنها رائعة ساحرة ولكنها ليست عالمي.. ليس العالم الذي تعودته. إنني أحب التعليم، قد يبدو لك هذا غريباً ولكن هذه هي الحقيقة».

جلس آرون إزاءها مقطباً جبينه:

ـ ديبرا، إذا كنت أنت ابنتي، فمن الطبيعي أن أتوقع منك الإقامة معي.. في أميركا، وطنك.

هزت رأسها لتنفي صورة دومينيك ماكجيل التي غزت ذهنها، فذلك الرجل يبعث الاضطراب في مشاعرها بشكل مزعج للغاية، خصوصاً وهي تعلم أن اهتمامه بها لم يكن إلا لشبهها بممثلة كان يعرفها جيداً.

قالت: «لا يمكنني ذلك، ألا ترى يا آرون؟ لقد نظمت حياتك من دون اليزابيت، وعلي أن أعود، لا يمكنني أن أهجر الخالة جوليا».

فهتف بوجه مشرق: «بإمكان خالتك أن تأتي للعيش معنا.. هذا المنزل هو مكان مؤقت لي، وبيتي الحقيقي في لوس أنجلوس. بإمكاننا جميعاً أن نعيش هناك..».

ـ خالتي تكره أميركا، وهي لم تكن تريد مني أن آتي إلى هنا، ولكنها سكتت عندما أدركت أن رفضي السفر سيكون أمراً سيئاً في اعتبار المسؤولين. هي تحب السيطرة بعض الشيء، ولكنني تعودت ذلك ولا أحب أن أسبب لها أي أذى.

سألها باهتمام بالغ: «هل خطر ببالك قط كم قد تكون آذتك؟ ألا تفهمين؟ إذا كنت ما نظنك، فهذه نصف القصة فقط. أما لماذا أخفت خالتك عنك الحقيقة طوال ذلك الزمن فهي قصة أخرى تماماً، هل تفهمين هذا؟»

قطبت ديبرا جبينها، لقد رفضت التفكير في هذا الأمر حتى الآن.

ـ ألم يتساءل دومينيك عن هذا؟

احمر وجه ديبرا: قد يكون فعل، لا أتذكر. هل.. هل يسكن السيد ماكجيل في هذه البناية هو أيضاً؟

ـ دومينيك؟ آه، لا.. منزله في «سانتا مونيكا» خارج لوس أنجلس. ألم يخبرك؟

فهزت رأسها: لأنه جاء إلى شقتي ليسألني عن اختبار الشاشة وكل شيء، ظننته يعيش في سان فرانسيسكو.

ـ عندما تزيد معرفتك بدومينيك، ستكتشفين مدى حبه للسرعة. من المؤكد أنه طار من لوس أنجلوس ليراك حالما اتصل به إيميت مورلي.

سألته مستفهمة: تقول طار؟

ـ طبعاً، فلديه طائرة صغيرة يقودها بنفسه.

قالت ذاهلة: «فهمت، إذن عندما أخذني يوم الأحد الماضي ليريني منزل اليزابيت ستيل كان جاء بالطائرة من لوس أنجلس؟».

ـ أظن هذا، وهذا لا يستغرق منه وقتاً طويلاً ثم لديه سيارته «الفيراري» ويستطيع أن يقطع بها الطريق في أقل من ٥ ساعات.

فاتسعت عيناها ذهولاً: يا إلهي.

سألها:

ـ ما رأيك بدومينيك؟ على كل حال أظنك سمعت باسمه من قبل؟

أجابت وهي تخفض نظراتها: «آه، نعم، سمعت عن كتاباته، إن دايڤيد.. نعم دايڤيد هوليستر يقول إنه مشهور جداً».

فضحك آرون ثم قال برزانة:

ـ هذا وصف ملطّف، إنه حقاً مشهور، كما أن النساء يحببنه، والصحافة تحب أن تصوره مع نساء لامعات، وتحب ذكر الأقاويل عنه، وهذا موجود على الدوام. ولكنه لم يعد صغيراً على كل حال، ولم يصل إلى سن التاسعة والثلاثين دون أن يتعلم شيئاً عن الحياة.

شعرت بوجهها يلتهب دون سبب:

ـ هل هو متزوج؟

ـ لا، لم يتزوج قط. كانت لديه بعض الصديقات اللاتي طالت صحبته لهن عن المعتاد، ولكنني أظنه لم يجد ضرورة للزواج. والآن لا تنظري إليّ بهذا الشكل، فأنا واثق بأنك لست من السذاجة بحيث تعتقدين أن رجلاً مثل دومينيك قد يعيش راهباً.

هزت ديبرا رأسها: ليس هذا هو الأمر. لم يتكلم معي رجل بهذا الشكل من قبل.

قال وقد بدا عليه الندم.

ـ أنا آسف يا ديبرا، أظنني اعتدت التحدث بمثل هذه الكلمات في الاستديو، لم أفكر قط في هذا. أنا آسف.

إبتسمت متوترة، ولكن هذا لم يكن أمراً شخصياً، بل هو شعور بالاشمئزاز من نوع الحياة التي يعيشها دومينيك.

سمعا صوت مفتاح يوضع في قفل الشقة، ثم دخل شخص ما إلى الردهة، وبعد ذلك إلى غرفة الاستقبال الفسيحة التي كان يجلس فيها آرون وديبرا.

نهض آرون واقفاً وعلى وجهه ابتسامة عريضة، والتفتت ديبرا باهتمام، ثم أدارت وجهها بسرعة وقد أخذ قلبها يخفق. قال آرون بشبه تهكم:

ـ مرحباً يا دومينيك، أذكر الشيطان يحضر في الحال.

دار دومينيك ماكجيل بتكاسل حول الأريكة ونظر إلى وجه ديبرا المرتبك.

ابتسم ساخراً ثم قال: «وماذا كنت تقولين عني يا آنسة وارن؟»

قال آرون قبل أن تجيب هي:

ـ آه، أدعها باسمها ديبرا، كنا نتحدث فقط عن شهرتك.

فقال ضاحكاً:

ـ إنها سيئة في معظمها، لماذا؟ وما دوري أنا في كل هذا؟

رفضت ديبرا مقابلة عينيه. لكنها في تلك النظرة المختصرة التي ألقتها عليه، سجلت كل شيء عنه، من البذلة الزرقاء التي كان يرتديها إلى القميص الأبيض الذي كان يلائمه تماماً، كانت ملابسه دوماً أنيقة حديثة الطراز.

هز آرون كتفيه:

ـ تعلم يا دومينيك أنه حيثما ذهبت فهناك من يعلن عنك، ويبدو أن دايڤيد هوليستر تكلم ضدك.

حملقت ديبرا فيه قائلة: أنا لم أقل هذا.

قال آرون عابساً: ستعلمين مع مرور الزمن أن أمثال هوليستر شغوفون بالفضائح، وأظن أن هذا تعليق عادل على حياتك، أليس كذلك يا دومينيك؟

نظر دومينيك ماكجيل إلى آرون بمودة:

ـ أظن ذلك، والآن ما الأمر؟ عندما اتصلت بي كنت مشغولاً جداً.

ضحك آرون:

ـ أحقاً؟ حسناً، لن أسألك عما كان يشغلك. إنني.. إنني لم أتحدث عن ذلك مع ديبرا بعد.

رفعت ديبرا بصرها تنقله بين آرون ودومينيك، ثم سألت:

ـ تتحدث عن ماذا؟ ما هذا؟

جلس آرون أمام ديبرا ممسكاً بيدها:

ـ ديبرا، يا عزيزتي. لقد فكرت في هذا الأمر منذ اتصل بي دومينيك إلى مدريد.

ـ اتصال.. إلى مدريد؟

ـ طبعاً، وإلا كيف لي بأن أعلم بوجودك هنا؟

ـ لكنني ظننت.. أعني أن السيد ماكجيل قال إنك تخرج فيلماً وربما ستراني عند عودتك.

ـ هذا صحيح. ولكن دومينيك رأى أنني قد لا أعود قبل أشهر، وقد

تعودين أثناء ذلك إلى لندن، ولهذا اتصل بي. صدقيني، كنت في غاية السرور.

هزت ديبرا رأسها... شقة مترفة، سيارة سريعة، ممثلات واتصالات إلى مدريد هي أشياء عادية بالنسبة إليهم.

تابع آرون يقول: «وكما قلت، بعد ما تلقيت اتصال دومينيك، أدركت أن الطريقة الوحيدة للوصول إلى أساس المسألة هي الذهاب إلى إنكلترا ورؤية خالتك جوليا».

فقالت: «تذهب إلى إنكلترا؟»

ـ نعم، إنكلترا يا ديبرا، ألا تريدين أن تعرفي الحقيقة؟

ـ حسناً، نعم، أظن ذلك. ولكن أعني أنني أشتغل هنا وعودتي إلى إنكلترا لن تكون قبل ثلاثة أشهر.

هز آرون رأسه:

ـ اسمعي يا حلوتي، لن يكلفك هذا قرشاً واحداً. ستكون الرحلة على حسابي. سميها هدية إذا شئت. إنها على الأقل طريقة لرؤيتك لعدة أسابيع، على كل حال، يا حلوتي، سبق أن أخبرتك... أيمكنك أن ترفضيني؟

شعرت باضطراب في داخلها، وعندما نظرت إلى وجه دومينيك الساخر شعرت فجأة بانحباس أنفاسها.

قالت بعجز: «آه، يا أرون، لا يمكنني ترك المدرسة دون أن أخسر وظيفتي، وأنا لا أريد أن أخسرها، إنني أحبها هنا.. أحب حريتي..».

سألها دومينيك وهو ينظر إليها بإمعان: أليس لديك حرية في إنكلترا؟

تحركت بقلق إزاء نظراته:

ـ خالتي متشددة بعض الشيء. هذا إلى أننا لم نكن مفرطي الثراء.

ضغط آرون يدها: ليس هناك ما يمنعك من العودة إلى أميركا يا ديبرا. لا بأس إخسري وظيفتك، وسأعثر لك على وظيفة أخرى إذا شئت. يمكنك أن تبقي المدة التي تريدين إذا كنت ابنة البزابيت، وسيكون هذا

بيتك.

هزت ديبرا رأسها: «إنك بالغ اللطف يا آرون، وأظنك رجلاً رائعاً، ولكنني لا أستطيع الآن... أن أسمح لك بأن تنفق عليّ ولو مؤقتاً».

ـ لماذا لا؟

وكان دومينيك هو المتكلم. فتابعت ديبرا النظر إلى آرون:

ـ لأنني، في الحقيقة، لا أصدق أنني ابنة إليزابيت ستيل أو... أي شيء آخر، إنني فقط ديبرا وارن العادية العديمة الأهمية.

فتمتم آرون غاضباً: «لا أحد يمكن أن يصفك بأنك عادية أو عديمة الأهمية يا ديبرا. إن هذا يعني كل شيء بالنسبة إلي، أرجوك، مهما قررت عمله فيما بعد، أعدك بأن أمتثل لقرارك.. أرجوك، دعيني أسعد نفسي بفكرة أنك ابنة إليزابيت».

أحنت ديبرا رأسها. كان من الصعب تماماً أن ترفض طلبه، فكرت بأنه قد يكون حقاً أباها، فهل بإمكانها أن تنكر على أبيها، الرجل الذي لم يحصل على زوجة دائمة ولا على ابنة، تنكر عليه الحق في معرفة الحقيقة؟ كانت في أعماقها تعلم أن مواجهتها للحقيقة تخيفها. فإذا كانت من يظنها، فهذا يخلق مشاكل كثيرة.

قالت بعجز: لا أدري.. هنالك وظيفتي.

هز ماكجيل كتفيه قائلاً: هذا أمره سهل، الأمر عائد إليك.

ـ آرون، أرجوك، أنا بحاجة إلى وقت، لقد حدث كل هذا بسرعة وبشكل مفاجئ، إنه أمر لا يُصدّق.

قال وهو يقف بضعف: «لا بأس، سأمنحك وقتاً، ولكن حتى يوم الاثنين فقط لتفكري».

***

في اليومين التاليين كان لدى ديبرا وقت كاف للتفكير، أدركت أن آرون كان منصفاً معها لأنه لم يستخدم ثروته أو مركزه للتدخل في قرارها.

أمضت يوم الأحد في حديقة الحيوانات، وأخذت حماماً شمسياً بجانب البركة الملحقة بها.

في هذه الشهور الثلاثة، زارت أكثر معالم المدينة الهامة.. رأت الحديقة ذات البوابات الذهبية المشهورة، وزارت المتاحف والمدينة الصينية أثناء النهار، وأثناء الليل رأت مدينة الملاهي وإعلانات النيون.

أمضت صباح الأحد في شقتها، وبعد الغداء خرجت تجول في المدينة، وعند الساعة السادسة عادت إلى الشقة متعبة سعيدة، وكانت في الحمام عندما سمعت رنين جرس الباب. لفت جسدها بمنشفة كبيرة وسارت عابسة إلى الباب تفتحه دون فك السلسلة، ووجدت دومينيك ماكجيل واقفاً أمام الباب وعلى وجهه ابتسامة عريضة بسبب ارتباكها.

سألته بسرعة وهي تغطي كتفيها: نعم؟

ـ افتحي الباب وسأخبرك.

ـ لا أستطيع، أنا لا أرتدي ثيابي.

ـ نعم، هذا ما أراه. ولكن لا تقلقي لهذا، فأنا أعرف شكل المرأة كما تعلمين. كما أنك مستترة أكثر مما لو كنت على شاطىء البحر.

ترددت، كانت تعلم أنه يمزح. لكنها ما لبثت أن أذعنت ففتحت الباب ثم تراجعت قائلة:

ـ انتظر حتى أعود إلى الحمام.

وأسرعت تعبر الردهة، لكنه تجاهل طلبها ودخل متكاسلاً، فأغلق الباب ثم استند إليه. أما هي فأغلقت باب الحمام بالمفتاح، ثم أخذت ترتدي ملابسها الداخلية بسرعة وفوقها روبها المنزلي إذ كانت ثيابها في غرفة نومها، ثم خرجت مشعثة الشعر ملتهبة الوجنتين. لم تكن واعية إلى هذه الصورة الطبيعية التي ظهرت بها أمام عيني رجل اعتادتا رؤية كل الوسائل الصناعية التي تستعملها المرأة لتجذب الجنس الآخر.

تمتم وهو ينظر إليها بإعجاب: جميلة جداً.

قالت محاولة أن تبدو رزينة: لماذا جئت؟

رأته يرتدي بذلة السهرة السوداء. كان واضحاً أنه خارج إلى مكان ما.

قال: «جئت لآخذك إلى حفلة».

ـ آه، ولكن...

ـ والآن، لا أريد احتجاجاً.. كل شيء شرعي وقانوني، وآرون ذاهب إلى هناك فيما بعد، إنه هو الذي أراد أن تذهبي.

ـ ما... ما نوع هذه الحفلة؟ أعني ماذا يجب أن ألبس؟ ليس عندي ملابس سهرة.

ـ لا علاقة لملابس السهرة بالحفلة، فأي ثوب عندك ينفع. ومن يراك لن يهتم بملابسك.

قالت بانزعاج: «أرجو أن لا أكون موضوع ملاحظة كل قادم إلى الحفلة فيقول كم أشبه إليزابيت ستيل. بصراحة، أريد أن أمثل نفسي ولا أريد أن أكون صورة طبق الأصل عن نجمة سينمائية».

بدت عليه التسلية وهو يشعل سيكارة ثم يدس يديه في جيبي بنطلونه:

ـ لا، أضمن لك أن هذا لن يحدث، على الأقل ليس مرات كثيرة.

ترددت قائلة:

ـ آسفة إذا كان آرون.. أعني السيد جونسون، قد وضع مسؤوليتي على عاتقك.

هز دومينيك كتفيه بعدم اهتمام: ربما لأنني أحب هذا النوع من المسؤولية.

أحنت ديبرا رأسها قائلة بلهجة غريبة: لا تشعر بأنك ملزم بقول هذا.

ضاقت عيناه وبدت فيهما الرقة:

ـ عندما تعرفينني جيداً، تدركين أنني لا أقول شيئاً لا أعنيه أبداً.

ونظر في عينيها عدة لحظات. انتبهت ديبرا إلى ضربات قلبها التي تتصاعد في سباق مع إيقاع القيثارة في الطابق الأعلى. لم تقترب من رجل قط إلى هذا الحد، ودومينيك ماكجيل رجل جذاب للغاية، وكانت تعلم في أعماقها أنه يعلم ذلك. وتدرك أنها بوقوفها جامدة بهذا الشكل تبدو

وكأنها تدعوه إلى شيء تجهله تماماً.

أزاح خصلة من الشعر عن وجنتها فشعرت بخشونة أصابعه السمراء... تباطأت يده في شعرها فشعرت بارتخاء في جسمها بأجمعه.

ثم تمتم يقول: اذهبي وجهزي نفسك وإلا قد أفعل ما أندم عليه فيما بعد. أتعلمين أنك بالغة الإغراء؟

قالت بصوت يرتجف: إغراء؟

ـ بالتأكيد، ولكنك غير مستعدة لنوع الالعيبي. إنهم لا يعلّمون مثل هذه الأشياء في مدرسة «فيلبرت».

ضغطت ديبرا شفتيها بشيء من الغضب: تعلم أنني لست تلميذة، أنا معلمة.

إبتسم عن أسنان بيضاء نضيدة:

ـ ما زلت بحاجة لتعلم الكثير، هيا أسرعي.

ذهبت ديبرا إلى غرفتها وشعور غريب يتملكها. لقد كرهت نفسها لتصرفها ذاك، فهو يظنها بسيطة ساذجة كتلميذة مدرسة.

رفعت رأسها ثم دخلت إلى غرفتها وصفقت الباب خلفها، وأسندت ظهرها إليه تتمالك نفسها. إنها لا تصدق أبداً مبلغ حماقة تصرفها هذا.

فتحت خزانتها، فبدت ثيابها ضائعة في داخلها ذلك أنها لم تستطع إحضار كثير من الأشياء معها. وشعرت بالضيق من نفسها لذلك، فهي لم تتمكن من خياطة أي ثوب بعد وصولها إلى أميركا، ولهذا لم يكن لديها سوى ثوبين للاختيار بينهما: ثوب أسود من الدانتيل جميل نوعاً ما، وآخر من الشيفون الأسود واسع التنورة لم يسبق لها أن لبسته قط لأن خالتها جوليا قالت إنه لمن هي أكبر سناً منها. كان له كمان طويلان ينتهيان بقلاّبين، وقلاب عند العنق ينحدر على الظهر بشكل مكشوف.

أخرجت هذا الثوب لكي يرى دومينيك بنفسه أنها ليست مراهقة. وضعت على وجهها قليلاً من الزينة، ثم أخذت تتفحّص طراز شعرها الذي كومته على قمة رأسها ثم نظرت إلى النتيجة. كانت تنورة ثوبها تنزل

عدة إنشات تحت ركبتيها، أما الحذاء فاختارته عالي الكعبين. هذا كله جعلها تبدو أكبر من عمرها بسنوات. التقطت وشاحاً حريرياً أبيض ثم فتحت باب غرفتها.

كان دومينيك جالساً على كرسي مريح وبين شفتيه سيكار. وقف عند رؤيتها، ثم أخذ يدور حولها متأملاً. تملكها شعور رهيب خصوصاً عندما قال ساخراً:

ـ حسناً، لن يخطىء أحد الآن فيظنك إحدى التلميذات.

هزت كتفيها: هل نذهب؟

ـ إذا شئت.

سارت أمامه تهبط سلم المبنى ومنه إلى الخارج، حركت الريح شعره فشعثته فبدا أكثر جاذبية من أي وقت مضى. نظرت حولها تبحث عن سيارته الفيراري الخضراء، ولكن ما إن رأت سيارة كاديلاك بيضاء حتى نظر دومينيك إليها برهة باسماً، ثم فتح باب الكاديلاك.

ـ هيا، سنتأخر.

سألته حائرة: «هل هذه سيارتك؟»

أجاب وهو يساعدها على الصعود إليها، ثم دار ليجلس بجانبها:

ـ لا، لقد سرقتها، وسأغير لونها عند الصباح.

ثم تحرك بالسيارة، فضغطت ديبرا شفتيها ورفضت أن تتحدث أكثر من ذلك.

خرج من سان فرانسيسكو متجهاً شمالاً نحو «سكرامنتو»، وكانت الساعة الآن الثامنة مساءً. كانت ديبرا مسترخية في مكانها قانعة بالنظر إلى يديه على عجلة القيادة لتنظر أحياناً إلى مؤشر السرعة. كان يسرع في الطرقات الرئيسية، وكان يعشق السرعة، ولكنه أخذ يبطئ عندما انعطفت السيارة خارجة من الطريق الرئيسي.

جازفت أخيراً بسؤاله: أين هي هذه الحفلة؟

ـ إنها في منزل رجل يدعى مارتن بيلمان. لديه مزرعة صغيرة خارج

المدينة. أظنك جائعة فأنت لم تأكلي شيئاً، أليس كذلك؟

ـ لا، ولكني لست جائعة جداً، وأنت؟

قال باسماً: «لا، ولكنني لا أهتم بالطعام فما هو إلا مجرد وسيلة للعيش. هناك رجال يعتبرون أنفسهم ذوّاقين في الطعام، ويمضون حياتهم في الاختيار، ونتيجة ذلك يعانون من ضغط الدم ومشاكل زيادة الوزن.. ولكنني لا أريد أن أنتهي هكذا، اللحم المشوي يكفيني، فليس لديّ دوماً المال الكثير الذي يجعلني أفرط في أطايب الطعام».

عبست ديبرا بشيء من التركيز:

ـ أخبرني عن حياتك، كيف ابتدأت الكتابة؟

استدار نحو بوابة الطريق المؤدي إلى المنزل وقال: «لقد وصلنا تقريباً، وهذه قصة طويلة، سأخبرك بها في وقت آخر».

اختنقت صرخة ضيق في صدرها، هذا هو على الدوام، كلما أرادت أن تعرف عنه أي شيء، يغير الموضوع.

كان منزل آل بيلمان يموج بالأضواء، وكانت هناك سيارات كثيرة تقف أمامه، وعندما صعدا الدرجات إلى الباب الأبيض الواسع تناولت خادمة وشاح ديبرا ثم أرشدتها إلى غرفة الاستراحة لتسوية شعرها وإصلاح زينتها.

نظرت ديبرا حولها باهتمام.. كانت دلائل الثراء في كل مكان، ونظرت إليها سائر النساء متفحصات. بدا أنهن جميعاً يعرفن بعضهم البعض، وشعرت فجأة بالوحدة البالغة ما جعلها تشعر بالارتياح للخروج والانضمام إلى دومينيك الذي كان واقفاً في الردهة الفسيحة المفروشة بالسجاد الأحمر، ولكنه لم يكن وحده بل كان يتحدث إلى رجل آخر وامرأتين التفتتا تنظران إلى ديبرا وهي تقترب. كانتا شابتين شقراوين أنيقتين للغاية تتألق عليهما المجوهرات. أما الرجل فكان وسيماً قاتم الشعر، وعندما اقتربت منهم قال لدومينيك شيئاً بصوت خافت، فاحمر وجهها وهي ترى دومينيك يميل برأسه نحوه ليسمع ما يقول بينما عيناه لا

تبارحان وجهها، ثم مد يده يجذبها إليهم قائلاً:

ـ أريدك أن تتعرفي إلى بعض أصدقائي. هذه إيلين غروغري وڤاليري هانتر وماكسويل بيرنستين.

صافحتهم ديبرا بشيء من النفور لأنهم يقيّمونها بنظراتهم، ما جعل ثوبها لا يساوي شيئاً. فكرت في أنها لن تستطيع أبداً أن تتجاوب مع أناس كهؤلاء، إنهم مهذبون أكثر من اللازم.

سألها ماكسويل بيرنستين: «هل أعجبتك أميركا؟ علمت أنك معلمة مدرسة».

أومأت برأسها وهي تنظر حولها باهتمام: هذا صحيح.

كانوا واقفين في ردهة واسعة بيضاء الجدران أرضها مكسوة بسجاد ناعم. إلى يمينهم مدخل يؤدي إلى غرفة استقبال مستطيلة منخفضة السقف وقف ببابها حشد من الصحافيين والمصورين الذين كانوا ينظرون الآن إلى دومينيك باهتمام مكشوف.

مرّ بهم نادل يحمل صينية عليها أشربة، فأخذ دومينيك كوبين من العصير..

سألها: هل أعجبك العصير؟

ـ أظن ذلك.

أخذت تتساءل عما يجعلها تشعر بالابتهاج بصحبته وتساءلت لماذا بعض الرجال السمر الطوال الوسيمين لا يثيرون فيها أية أحاسيس، بينما آخرون ذوو وجوه نحيفة وشعر خطه الشيب وأعين زرقاء قاسية يمكنهم أن يثيروا في نفسها مثل هذا الإحساس بالشوق؟

قالت ڤاليري هانتر فجأة وعيناها المنحرفتان تضيقان برضى خبيث:

ـ تلك هي مارشا يا دومينيك، كنت أعلم أنها ستأتي.

نظرت ديبرا حولها بسرعة فرأت امرأة شقراء طويلة رشيقة تتقدم نحوهم. كانت من أجمل النساء اللاتي رأتهن ديبرا في حياتها؛ شعرها

يصل إلى كتفيها وعيناها زرقاوان داكنتا الأهداب، حاجباها أدكنان مقوّسان، أما ثوبها الأزرق فضيق يبرز تقاسيم جسمها. رفعت ديبرا بصرها إلى دومينيك الذي كان هو أيضاً ينظر نحو القادمة الجديدة، ولكن لم يبد عليه أي انزعاج على الإطلاق. وعندما وصلت إليهم الشقراء، لم يفعل سوى أن ابتسم ساخراً وقال: مرحباً.

قالت وهي تتأبط ذراعه بهيئة المتملك:

ـ تأخرت يا عزيزي، فقد كنت أنتظرك...

لم يعتذر دومينيك بل قال بدلاً من ذلك:

ـ أقدم إليك مارشا ماتيوس يا ديبرا، مارشا، أقدم إليك ديبرا وارن.

فقالت ديبرا: «أهلاً وسهلاً».

عندما لم تمدَّ مارشا يدها لمصافحتها، لم تمد هي يدها أيضاً.

قالت مارشا ببرودة: «مرحباً، سمعت أنك هنا في رعاية آرون».

ثم نظرت إلى دومينيك.

ـ هيا بنا يا عزيزي. لديّ شخص أريد منك أن تتعرف إليه.

أصبح شعور ديبرا فظيعاً الآن... لقد تبددت كل مشاعرها السابقة بالبهجة لدى مجيء مارشا التي تساءلت كم تبلغ من العمر، ربما هي السابعة والعشرين؟ من المؤكد أنها تعتبر ماكجيل ملكاً لها، وتساءلت ديبرا عما إذا كان يحب هذا النوع المسيطر من النساء، وشكت في ذلك لأنه مستقل الشخصية.

سحب دومينيك ذراعه من يد مارشا بلطف إنما بحزم. نظرت إليه غاضبة، وعندما وجدت أنها غير قادرة على تحقيق ما تريد، قالت متوسلة: أرجوك يا دومينيك.

هز دومينيك كتفيه، ولاحظت ديبرا أن ڤاليري وإيلين مستمتعتان بهذا المشهد كثيراً. كان واضحاً أنهما لا تحبان مارشا ماتيوس...

ديبرا نفسها شعرت بالبرد لأنها فكرت في فظاعة أن يرغب شخص في آخر بهذه القوة فلا يتلقى منه سوى اللامبالاة، وصممت على ألا تشعر بهذا

www.elromancia.com

الشكل نحو أي رجل فلا شيء يستحق ذلك.

كان دومينيك يقول الآن: أرجو أن تعذرونا.

ثم أمسك بذراع ديبرا متجاهلاً ما ارتسم على وجهها من دهشة وجرها نحو قاعة الرقص. وسرعان ما اعتبر مراسلو الصحف هذا بمثابة ترخيص لهم لالتقاط الصور. وأغمضت ديبرا عينيها ووميض الكاميرا يتوهج في وجهها.

همس دومينيك في أذنها: استرخي وابتسمي وحاولي أن تبدي وكأنك مستمتعة بالحفلة.

نظرت إليه بتمرد ثم قالت بغضب:

ـ كنت مستمتعة حقاً، ولكن لم يعجبني أن تستغلني كوسيلة للتخلص من صديقاتك.

قال ساخراً وقد بدت عليه التسلية: «ما هذا؟ من المؤكد أنك لا تتصورين أنني كنت بحاجة إليك للتخلص من مارشا».

فاحمر وجهها وقالت بضيق: هكذا بدا الأمر.

فقال برقة: «إنك لا تعرفينني جيداً يا صغيرة. هيا بنا نرقص وبعد ذلك أعرّفك إلى من حولنا... يوجد هذه الليلة بعض ذوي النفوذ البالغ الذين يسعون إلى النجومية».

لم تجب... كانت مشاعرها متجهة نحو قوة أصابعه القابضة على يدها والتي تجرها إلى حيث كان الرقص يدور، كانت الفرقة الموسيقية تعزف رقصة لم تكن ديبرا رأتها سوى على شاشة التلفزيون في وطنها. جمدت في مكانها لحظة وهي تتساءل عما إذا كان عليها أن ترقص على هذه الأنغام. ثم وجدت أنها إذا حركت قدميها بانسجام فإن الرقصة نفسها ستأتي إليها وأخذت تتحرك على الإيقاع بحرية شاعرة بالإثارة. لاحظت أن دومينيك كان يراقبها متابعاً خطواتها دون مشقة. كان واضحاً أنه اعتاد هذا النوع من الرقص لأنه كان يجيده تماماً، وبدا بجسمه النحيل وجاذبيته الحيوية وكأنه في الثامنة والعشرين وهذا ما جعلها تمسك أنفاسها. ولكنه

لم يكن يلهث مثلها عندما انتهت الرقصة.

قال متكاسلاً: «إنك في حالة سيئة، ما هي تمريناتك المعتادة؟»

قالت ساخطة: «المشي، ولعب التنس أحياناً، وأنت؟ ما الذي تفعله عدا قيادة السيارات السريعة؟»

ـ ألعب الغولف والسباحة، لا أظنك تسبحين في بلدتك «ڤاليداون» في إنكلترا؟

أجابت باختصار: لا... هنالك بركة واحدة للسباحة في البلدة، وهي مزدحمة دوماً بالأولاد.

أمسك دومينيك ذراعها وسارا معاً إلى نهاية قاعة الرقص حيث كانت مجموعة من الرجال واقفين، ثم قال بجفاء:

ـ يحتوي منزل إليزابيت ستيل في ويلشاير على بركة للسباحة، ولديّ بركتين في داخل البيت وخارجه. يجب أن تأتي لتسبحي معي.

ضغطت ديبرا شفتيها لأنها لا تستطيع أن تخبره أنها لا تحسن السباحة على كل حال.

فقالت بتهكم جعله يضحك:

ـ أشكرك، لن أنسى هذا.

ثم برز آرون من بين المجموعة التي كانا يقتربان منها، وتقدم نحوهما ماداً يديه بشوق وهو يهتف بحماسة:

ـ يا عزيزتي ديبرا... إنها تبدو رائعة، أليس كذلك يا دومينيك؟

هز دومينيك كتفيه قليلاً بينما احمر وجه ديبرا، ولكنها سمحت لآرون بأن يمسك بيديها ثم يقبل وجنتيها ويجذبها نحو المجموعة يعرفهم إليها.

تعرفت إلى كثيرين من ذوي الوجوه الغريبة والأسماء غير العادية، ولم تنتبه إلى أنها لم تعد ترى دومينيك ماكجيل منذ فترة إلا بعد أن جلست مع آرون ومارتن بيلمان صاحب المنزل وزوجته. فأخذت تجول بنظراتها في أنحاء القاعة، ولكنها لا تريد الاعتراف بأنها كانت تبحث عن ماكجيل.

ثم رأته... كان وسط مجموعة من الشبان والفتيات، متكئاً إلى حاجز منخفض في الزاوية المقابلة من القاعة، ومارشا ماتيوس متكئة إليه... أظافرها الفضية تلاطف جانب رقبته. شعرت ديبرا بغثيان، فوضعت كأسها من يدها، ولكنها أهرقت منه شيئاً... نظر آرون إليها باستغراب وعندما رأى وجنتيها الشاحبتين، قال: «لم تتناولي بالتأكيد أي عشاء بعد... هيا بنا، سآخذك إلى حيث تأكلين شيئاً... ستعذراننا، أليس كذلك يا ليديا ويا مارتن؟»

سمحت ديبرا لآرون بأن يقودها من القاعة إلى غرفة أخرى ملحقة بها لم تكن دافئة تماماً أو مزدحمة، فيها كانت موائد مستطيلة محملة بمختلف أنواع الأطعمة، كان هناك سمك سلمون مدخن وأربيان وسلطات متنوعة وكباب وشطائر وأجبان وفاكهة، وقهوة أميركية. لم تكن تشعر بالجوع وشعرت بأن هذا الطعام سيخنقها، ولكن بسبب ألحاح آرون، تناولت شيئاً من السلطة. وبعد كوبين من القهوة، شعرت بشيء من التحسن. فكرت في أن السبب ربما هو صحبة آرون. ونظرت إليه برقة، كان بالغ الرفق والحنان وشعرت بشكل ما أنه قريب منها شعورياً.

رأى آرون ما ارتسم على ملامحها من تعبير، فوضع ذراعه حول كتفيها النحيلتين وتمتم في أذنها:

ـ حسناً يا ديبرا لقد حلَّ يوم الإثنين فهل اتخذت قراراً أم لعلني أستعجل الجواب؟

نظرت ديبرا إليه بمودة بالغة، وهمست:

ـ آه يا آرون.. لا.. لا يمكن أن أرفض حقك في أن تعلم الحقيقة، كما أنني لا أستطيع أن أنكر فضولي. ظننت أن هذا لا يهم، ولكنني كنت مخطئة فأنا أريد أن أعلم الحقيقة.

عانقها آرون بشدة وقال: «الحمد لله. لا يمكنك أن تتصوري شعوري في اليومين الماضيين. أردت أن أقنعك، وأنا واثق من أنني كنت سأتمكن من إقناعك، ولكنني أردتك أنت أن تقرري بنفسك. كان مهماً جداً أن

تلتمسي الحقيقة مثلي... انتظري حتى أخبر دومينيك فهذا لن يدهشه، كان واثقاً من أنك ستوافقين».

شعرت ديبرا بأعصابها تعود إلى التوتر، فقالت: آه أحقاً؟

ـ بالتأكيد، فهو صائب الحكم على الأشخاص، وسيهمني أن أرى ردة فعله بالنسبة لخالتك جوليا.

ـ خالتي جوليا؟ ولكن كيف سيقابلها؟

ـ حسناً، هذا سهل جداً فهو ذاهب معنا.

تمتمت بضعف: إلى انكلترا؟

ـ ظننت أننا سنذهب وحدنا، أليس كذلك؟

فهزت كتفيها: حسناً.. ظننت ذلك.

ـ سأكون بحاجة إلى شاهد يشهد ما ستقوله تلك الخالة، فقد لا يكون الأمر سهلاً كما نظن.

فارتجفت ديبرا: لا أستطيع تصديق ذلك حتى الآن.

ـ أعلم هذا، لا بد أنه أصعب عليك منه عليّ، ولكنك تعلمين يا حبيبتي أنك لن تستطيعي متابعة حياة كاذبة إذا كانت هذه هي الحقيقة. إن لك الحق في كل ما أملكه إذا كنت ابنتي، كما أنني بحاجة إليك يا ديبرا. صدقيني، خالتك تلك ليست بحاجة إليك أكثر مني.

تنهدت ديبرا... كان الأمر صعباً. لقد ألزمت نفسها الآن ولا بد لها أن تعود لتكتشف الحقيقة، وعند ذلك... عند ذلك ماذا..؟ الحقيقة أن أكثر مشاكلها ستواجهها عند ذلك.

في أعماقها، هناك دوماً دومينيك ماكجيل. ماكجيل الذي خيل إليها أنها ستنساه حالما تعود إلى حياتها المعتادة. ولكنه بدلاً من ذلك سيأتي معهما إلى إنكلترا، إلى الأماكن التي عرفتها طوال حياتها.

***

٥ ـ لا تنظري إلى الوراء

أعفى دايڤيد هوليستر ديبرا من العمل قائلاً بعنف:

ـ أظنك ترتكبين غلطة كبرى يا ديبرا، فأنت تتخلين عن كل شيء لاحتمال أنك ابنة تلك المرأة. هل تدركين أن السلطة لن تسمح لك بالعودة إلى هنا لإكمال هذه الدورة أو أي دورة أخرى في المستقبل؟

ـ نعم، أدرك ذلك. ولكن هذا ليس قراري وحدي، فإذا كنت حقاً ابنة اليزابيت ستيل فإن الحقيقة يجب أن تظهر.

بدت السخرية على وجه دايڤيد هوليستر:

ـ ما تعنينه هو أن المال سيكون مفيداً جداً! لم أظنك ذات طبيعة مادية يا ديبرا، لم تكن هذه عادتك.

تنهدت قائلة: «صدقني لست كذلك. ألا يمكنك أن ترى أن وضعي الآن غير مقبول؟ لا يمكنني تجاهل حقيقة أن السيد جونسون كان مغرماً بأمي.. أعني اليزابيت ستيل».

فشخر المدير ساخراً:

ـ أراك بدأت تصدقين هذا. يا إلهي يا ديبرا! من الممكن أن يكون هذا كله خداعاً، هل فكرت في ذلك؟

ـ خداع؟ ما الذي تعنيه بقولك (خداع)؟

ـ ما أريد قوله هو، صحيح أنك تشبهين تلك المرأة قليلاً على كل حال. ربما كل هذا من باب الدعاية. ربما، مثلاً، سيتخلصون منك بعد أن ينالوا غرضهم الخبيث من وراء هذا كله.

ضغطت ديبرا يديها على وجنتيها الملتهبتين: هذا قول فظيع.

ـ إنك طفلة ساذجة دون خبرة، بينما هما عصابة محنكة. كيف تعرفين حقيقتهما؟

هزت رأسها قائلة:

ـ آه، لا يا دايڤد. إنك مخطىء، مخطىء كلياً، فآرون ليس بهذا الشكل.

ـ وماكجيل؟

استمرت تهز رأسها: لا أدري، ولكن هذا غير مهم، فليس لدومينيك علاقة بهذا الأمر؟

قال ساخراً: «أحقاً؟ لا علاقة له؟ بإمكانه أن يقرر ما إذا كنت ابنة اليزابيت أم لا، فهو يعرفها إلى حد كافٍ».

نظرت إليه ديبرا بعينين ضيقتين: ماذا تعني؟

بدا هوليستر مرتبكاً قليلاً فقال باختصار:

ـ لا شيء، متى ستغادرين إلى انكلترا؟

عندما تركت ديبرا المدرسة بعد ذلك، شعرت بالسرور، فقد كانت تشعر بعداء بقية الموظفين الناتج دون شك عن موقف دايڤيد هوليستر، وهذا ما أشعرها بالعزلة. مرغريت ستيفانز فقط بقيت صديقة لها وأخذت تمزح معها.

قالت لها ضاحكة: «أنت ساندريلا ذات أم خبيثة بدلاً من أختين».

فهتفت ديبرا وهي ترتجف: لا تقولي هذا يا مرغريت. كما سبق وقال دايڤيد كل هذا مجرد تخمينات.

فأجابت مرغريت مفكرة:

ـ ولكنه تخمين معقول. إذا كانت اليزابيت ستيل أمك، فمن هو أبوك؟

فقالت ديبرا ببطء: «هذا ما لا أعرفه، ربما أعرف ذلك إذا ظهرت الحقيقة».

- هل أبلغت خالتك بأنك قادمة؟

- أنا.. لا، آه يا مرغريت! لا يمكنني أن أشرح شيئاً كهذا في رسالة أو تلغراف بل عليّ أن أكون هناك عندما أخبرها. عليّ أن أرى وجهها وأعرف الحقيقة.

قالت مرغريت ساخرة: «لتري إن كانت تكذب؟ كم أتمنى لو أن هذا لم يحدث لك، فقد كنت فتاة في منتهى الرقة والهدوء. لا أريد أن تتغيري، أن تصبحي صعبة فظة، ولكنك ستصبحين كذلك إذا أنت تابعت هذا».

حملقت ديبرا فيها مدهوشة: لماذا؟ لماذا أتغير؟

- لأنك ستختلطين بأناس لا تعرفينهم وإذا لم تصبحي كذلك فستتأذين.. إنني أعرف هذا، صدقيني، لقد عانيت مثل هذا من قبل.

- أتعنين... الرجال؟

- نعم، الرجال، رجال أمثال ماكجيل مثلاً. والآن لا تقولي إنك لم تنتبهي إليه لأنني لن أصدقك.

- لقد انتبهت إليه طبعاً، ولكنه ليس أول رجل أراه جذاباً.

- أتعترفين أنك رأيته جذاباً؟

- لا تغيظيني يا مرغريت. كل هذا مجرد سخافة. أحياناً أتمنى من كل قلبي لو لم أقم بهذه الزيارة إلى الإستديوهات. ولكن هذا ما حصل، ورآني إيميت.. والآن.. أصبح الأمر هاماً يا مرغريت. لقد خرج الأمر من يدي، لن أستطيع السيطرة عليه بعد الآن، فهو يتعلق بأناس آخرين كما يتعلق بي، ولا يمكنني تحمل مسؤولية إنكار حق الآخرين في معرفة الحقيقة. آه، إنني أعلم أنني فضولية أيضاً، وهذا أيضاً لا أنكره. ولكن من ناحية أخرى أفلتت مني الفرصة في أن أوقف كل هذا.

تنهدت مرغريت وأمسكت ذراع ديبرا برفق:

- حسناً يا حبيبتي، أرجو أن تكوني عالمة بما تفعلينه. فانتبهي، ولا تخدعي نفسك بالنسبة إلى ماكجيل.

حدّقت ديبرا إليها وقالت بحزم: «لن أفعل، فأنا واعية تماماً إلى أنه قد يراني مجرد مشروع عمل محتمل».

- قد يكون هذا، ولكنك لا توازينه استيعاباً للأمور رغم كل شيء، وقد يتسلى بجس نبضك.

ابتعدت ديبرا قائلة: «حسناً، هذا كل ما في الأمر. فكيف يصيبني أي أذى؟ ولكن شكراً لاهتمامك بأمري».

ونظرت إلى صديقتها من فوق كتفها وهي تمنحها ابتسامة متوترة.

في الأيام التي سبقت سفرهم إلى انكلترا، أخذت ديبرا ترى آرون كثيراً... أصرّ على أن يدفع لها أجرة السفر إلى وطنها رغم احتجاجها، ورتب كل أمور الرحلة. كما أخبرها أنهم سيتوقفون في نيويورك عدة أيام للسماح لدومينيك بأن يتفقد أعمالاً له هناك، وأثناء ذلك تتفرج ديبرا على المدينة.

عمّت الفرحة قلب ديبرا، ففي رحلتها إلى سان فرنسيسكو لم تمضِ سوى بضع ساعات في الطائرة، لذا فلم ترَ الكثير من البلاد.

سارت الرحلة بنجاح، وشعرت ديبرا بقلق لوجود دومينيك ماكجيل، ولكن ما كان لها أن تشعر بهذا. فقد كان معهم أيضاً ستيف لاني مساعد آرون الشخصي، ورجل آخر يدعى ڤيكتور روس هو سكرتير دومينيك وصديقه الحميم. وهكذا جلست ديبرا مع آرون وستيف لاني، ولم تر دومينيك إلا قليلاً. اجتذبت اهتمامها، في البداية، الرفاهية المحيطة برحلتهم على الطائرة، ولكنها بعد فترة، شغلت نفسها بمطالعة المجلات التي أحضرتها لها المضيفة، ولكنها ما لبثت أن تذكرت خالتها التي لن تكون مسرورة خصوصاً إذا ظهر أن الأمر كله خطأ لا صحة له، فقد كانت تكره الزيارات المفاجئة.

أخذت تمعن النظر في الأمر مرة بعد مرة. لو كان هذا صحيحاً، فلماذا لم تخبرها به خالتها؟ لماذا لم تخبرها عن والديها؟ ما هي الأسرار التي حجبتها عنها طوال تلك السنين؟ وكيف يمكن لإنسان أن يحتفظ بسر

دون أن يشعر بالذنب والتآمر؟

وجدت نيويورك مدينة بالغة الاتساع والفخامة، مزدحمة بالسيارات والحافلات، فيها الناس مسرعون دوماً. شعرت ديبرا بالضياع والتشوش، وبالمقارنة مع لندن، بدت لها لندن دافئة أليفة. لكنها صعدت إلى ناطحة السحاب إمباير ستيت وتفرجت على البط في الحدائق، كما تمشت مع آرون في منطقة التسوّق الأسطورية، حيث أصرّ آرون على أن يشتري لها طقماً مخملياً أسود أعجبها في واجهة متجر. بعدما جربته ابتسم راضياً وقال: «يجب أن تعتادي على أن أشتري لك الأغراض يا عزيزتي، أريد أن أعطيك كل ما حلمت به هذا إذا سمحت لي بذلك».

هزت ديبرا رأسها وهي تتنهد، ثم احتضنت ذراعه دون وعي وقالت:

ـ آه، يا آرون، إنك تجعلني أشعر بالأمن والدفء وهذا يجعلني خائفة.

ـ خائفة من ماذا؟

رفعت كتفيها بعجز: لا أدري، قد نجد كل هذا حلماً وعند ذلك..

أمعن آرون النظر في وجهها:

ـ خالتك تلك لا أظنها امرأة عاطفية.

عضت ديبرا شفتها:

ـ لا أظنني وفية لها.. فالأمر لم يكن سهلاً بالنسبة إليها وهي ترعاني بذلك الشكل. أعني، مهما كانت الأسباب، فقد بذلت جهدها في تربيتي.

ـ أحقاً؟ هذا عجيب.

بدا الانزعاج في عيني ديبرا، ثم قالت بهدوء:

ـ إنها على الأقل لم تهجرني عند ولادتي. أعني إذا كنت ابنة إليزابيت ستيل حقاً، فهذا ما فعلته بي، أليس كذلك؟

فقال بجفاء: «سرعان ما نعلم الحقيقة».

عندما حطت بهم الطائرة الضخمة في منتصف الليل كانت سماء لندن غائمة، والمطر ينهمر رذاذاً. انتهت الإجراءات الجمركية بسرعة خرجوا بعدها إلى منطقة الاستقبال ليأخذ الحمال أمتعتهم إلى سيارة المرسيدس

التي كان يقودها سائق في الخمسينات من عمره حيا آرون ودومينيك بسرور ظاهر.

في السيارة، جلست ديبرا في الخلف بين آرون وسكرتيرة ستيف لاني الذي كان بعمر آرون وقد أحبته كثيراً. أما دومينيك وفيكتور روس فقد جلسا في المقعد الأمامي مع بوتر السائق.

حجزوا جناحاً في فندق هيلتون، ولكن الإرهاق لم يسمح لديبرا بأن تلاحظ ما يحيط بها. أرشدوها إلى غرفتها، وبعد أن رفضت أن تدع الخادمة تفرغ لها أمتعتها، اغتسلت في الحمام المترف وأخرجت قميص نومها من الحقيبة، ثم اندست بين ملاءات السرير الناعمة.

عندما استيقظت في الصباح التالي، لم تستطع أن تتذكر أين هي... الستائر الصفراء السميكة المعلقة على النوافذ، السجادة العاجية السميكة على الأرض، غطاء السرير العسلي المصنوع من الساتان.. كل هذا كان غريباً عليها، وإذا بها تتذكر كل شيء، فتنهدت ومالت تستطلع الوقت في ساعة معصمها الموضوعة على المنضدة بجانب السرير. أخذت تطرف بعينيها وهي ترى أن الساعة هي الحادية عشرة والربع، هذا مستحيل!

نزلت من السرير وركضت إلى النافذة فرأت الامتداد الشاسع لحديقة هايد بارك عند اليمين، وحركة الشارع التي تشير إلى أن النهار في منتصفه حقاً وأنها نامت اثنتي عشرة ساعة. كان هذا شيئاً لا يصدّق، وتساءلت عما يفعله الآخرون وعما إذا خرجوا بدونها.

غسلت وجهها بسرعة وارتدت الطقم البرتقالي الذي ارتدته في اليوم السابق. كان الطقم الجيد الوحيد الذي تملكه. فكرت في ارتداء طقمها الجديد، ولكنها عادت فنبذت هذه الفكرة إذ لم تكن معتادة على لبس البنطلون الذي لم يكن يروق لخالتها جوليا.

عندما خرجت إلى غرفة الجلوس وجدت فيكتور روس متمدداً بكسل على أريكة حمراء وهو يقرأ الصحف.

حياها مبتسماً: مرحباً، ها قد استيقظت أخيراً. كنت قد بدأت أشعر

بالقلق.

احمر وجه ديبرا وابتسمت بدورها:

ـ تأخرت في النوم، ماذا سيظن بي آرون؟

قال ڤيكتور وهو يجلس مسوياً ثيابه:

ـ لقد خرج آرون ودومينيك وستيف منذ ساعتين. أظنهم سيعودون بعد ساعة. أما الآن فأقترح أن نتناول الغداء.

قالت وهي تهز كتفيها:

ـ دوماً يتركونني تحت مسؤولية شخص ما كما يبدو. أعني أنني أعرف لندن بشكل لا بأس به، وأنا قادرة تماماً على الذهاب لتناول الغداء والعودة في ظرف ساعة.

اتسعت ابتسامة ڤيكتور:

ـ لماذا تظنين يا عزيزتي أنني لا أريد أن آخذك إلى الغداء؟ صدقيني لا مانع لدي على الإطلاق.

ـ إنك تقول هذا تأدباً، ولكن...

ـ تباً لذلك، فأنت فتاة جميلة وليس هناك من يقول إن ڤيكتور روس لا يحب الفتيات الجميلات.

ضحكت وهي تقول: «لا بأس، إنك بالغ اللطف».

ـ هذا ليس لطفاً، فأنا سأستمتع بصحبتك.

تناولا الغداء في مطعم الفندق، ورأت ديبرا أثناء الطعام أن بإمكانها التحدث مع ڤيكتور بطلاقة تامة. لم يسبق لهما حتى الآن أن تبادلا كلمتين معاً، ولكنهما الآن استطاعا التعارف بشكل جيد. والحقيقة أنها استراحت إلى صحبته وأخذت تستمع باهتمام وهو يتحدث عن عمله مع دومينيك ماكجيل وعن مختلف البلدان التي زاراها معاً للتفتيش عن موادّ لكتابات دومينيك.

قال متذكراً: «أظنني عرفت دومينيك طوال حياتي. لقد نشأنا معاً نفس النشأة الشاقة وفي نفس الحي».

ـ أين كان ذلك؟

ـ في بروكلين... كانت حياتنا صعبة للغاية، أظن أن من الصعب أن تصدقي ذلك الآن وأنت ترين دومينيك وكل ما يملك. ولكن، صدقيني، لم تكن حياته سهلة على الدوام. إن طموحه وحده هو الذي حقق له النجاح.

ـ هل.. هل والداه ما زالا حيين؟

ـ لا، ماتت أمه منذ سنتين أو ثلاث، وأظنه لم يعرف أباه قطّ.

ـ آه، فهمت.

وأحنت رأسها وهي تتذكر اليوم الذي أخذها دومينيك فيه إلى منزل اليزابيت ستيل. لقد تحدثت حينذاك عن الولادات غير الشرعية، فبدا عليه التهكم وهو يراها تحاول أن تجد عذراً لنفسها، إذ قالت له إنه لا يعرف شيئاً عن ذلك.

كان صحيحاً ما قاله من أن الطفل البريء الذي يصل إلى هذا العالم دون إرادة منه، لا يمكن أن يوصم بالعار.

كان ڤيكتور ينظر إليها، ثم قال عابساً:

ـ ماذا حدث؟ هل صدمتك بما قلت؟ لماذا؟ لقد كان في حينا أولاد دون أبوين، وكنا نعتبر أنفسنا محظوظين إذ نجد بيوتاً نأوي إليها حتى ولو كانت أمكنة فظيعة.

أجابته بجد: «لم تصدمني، لا. كنت أفكر فقط... أخبرني كيف أصبح دومينيك ناجحاً؟»

ـ ألم يخبرك؟

ـ لو أخبرني لما سألتك.

نظر إليها بإمعان: هذا صحيح. حسناً، يمكنك أن تقولي إن اليزابيت ستيل هي المسؤولة عن ذلك.

شعرت بتوتر في أعصابها: أحقاً؟ وكيف؟

ـ أظنها أقنعت آرون بقراءة المسرحية التي كتبها... حسناً، هذا أمر

لا يخصني . . يمكنك أن تسألي دومينيك بنفسك .

قطبت ديبرا حاجبيها :

ـ لماذا؟ وما السرية في هذا؟ أعلم أن دومينيك يعرف اليزابيث ستيل جيداً جداً، لقد أخبرني آرون بذلك .

عض ڤيكتور شفته وهو ينظر إلى الباب مفكراً ثم أشرق وجهه :

ـ حسناً، لم يعد لدينا وقت الآن، فقد جاء دومينيك .

تملك ديبرا خيبة الأمل لأنها كانت مهتمة بأخبار علاقات دومينيك .

توقف دومينيك عند مائدتهما، فرفعت ديبرا بصرها إليه . . . كان يرتدي بذلة بنية وقميصاً عاجياً، بدا فيهما جذاباً للغاية . كان نصف زبائن المطعم ينظرون إليه .

قال وهو يشملهما بنظراته : «مرحباً، أظنك نمت جيداً يا ديبرا» .

شعرت ديبرا بوجهها يلتهب : نـ . . نعم . . شكراً .

ـ هذا حسن، هل تغديتما؟

أجاب ڤيكتور : «لقد انتهينا لتونا، هل تغديت أنت؟»

ـ حسناً، أكلنا شطيرة في الإستديو . بإمكاني الانتظار حتى العشاء؟

سألت ديبرا :

ـ أين آرون وستيف؟

ـ ينتظران أمام المنصّة . إذا كنتما جاهزين يمكننا الذهاب .

سألته ديبرا متلعثمة : «وهل . . . هل سنذهب إلى «ڤاليداون» الآن؟»

ـ بالتأكيد .

ـ سأحضر أمتعتي إذن .

قطب دومينيك جبينه :

ـ لماذا؟ لن تبقي هناك .

ـ أنا . . أنا . . بل سأبقى، فڤاليداون هي موطني .

قال دومينيك ساخراً : «إنها تعليمات آرون وليست تعليماتي، هيا بنا نذهب» .

وقفت ديبرا غاضبة : سأحضر حقيبتي .

فتمتم دومينيك وقد بدا عليه الملل :

ـ لا بأس، لا بأس، أحضري حقيبتك إذا كنت تصرين على التصرف كطفلة .

وقف ڤيكتور هو أيضاً وأخذ ينقل نظراته بينهما مفكراً ثم قال سائراً نحو الباب :

ـ هيا بنا يا دومينيك، لنتناول شيئاً نشربه .

ـ نعم، لا بأس .

ورمق دومينيك ديبرا بنظرة أخيرة ساخرة، ثم لحق بها وهي تندفع كالعاصفة خارجة من الغرفة .

عندما جمعت كل حاجياتها، فتحت باب غرفتها فوجدت حمّالاً ينتظر لينزل حقائبها . ضغطت شفتيها بفروغ صبر وهي تفترض أن دومينيك أو ڤيكتور أرسله إليها . وما لبثت أن تنهدت وهي تناوله الحقائب وتتبعه إلى المصعد .

كان آرون ينتظر عند الاستعلامات، وعندما رأى الحقائب قطب جبينه وقال مؤنباً :

ـ ألا تثقين بي يا ديبرا؟ ألا يمكنك على الأقل، أن تمنحيني فرصة لقضاء بعض الوقت معك حتى ولو لم يكن هذا الأمر صحيحاً؟ أنت تشبهين أليزابيت، ووجودي معك يشعرني ببهجة غامرة .

احمر وجه ديبرا :

ـ آسفة يا آرون، ولكن مهما حدث، يجب أن أبقى مع خالتي جوليا .

تنهد آرون :

ـ لا بأس، لا بأس، سنرى ما سيحدث . . . ولكن عليك أن تعديني، إذا ساءت الأمور وذهبت أنا، أن تأتي إلي .

أمسكت ديبرا بذراعه :

ـ آرون، تجعلني أشعر بالذنب، المشكلة هي أنني أريد أن أقيم معك،

فأنا أحب أن أكون معك، وهذا يخيفني، إذ يجب أن لا أسمح لنفسي بمثل هذا الارتباط.

أجابها وهو يسير أمامها إلى المرسيدس:

ـ ولكنك مرتبطة فعلاً يا عزيزتي، ومهما حدث الآن، فلن أستطيع نسيانك وأشك في أنك أنت أيضاً ستنسين.

شعرت بمعدتها تتقلص لمرأى دومينيك الواقف على درجات الفندق...

قالت: «أعرف وهذا ما يزعجني».

ولكن الدهشة تملكتها وهي ترى أن ماكجيل لن يذهب معهم. ركبت هي وآرون وستيف لاني المرسيدس، بينما صعد دومينيك إلى مقعد سيارة جنسن عاجية اللون مع ڤيكتور روس، وقبل أن يصعد السائق «بوتر» إلى وراء عجلة القيادة في المرسيدس، كان دومينيك قد توارى بالسيارة، وشعرت ديبرا بالحسد لتمكنهم من السفر بتلك السرعة بينما بوتر يسير ببطء السلحفاة.

قالت ما إن وصلوا إلى شارع البلدة الرئيسي:

ـ أنا... أنا أحب أن أتحدث إلى خالتي أولاً على انفراد.

نظر آرون إليها مفكراً ثم قال:

ـ أحب أن أكون معك.

ـ آرون، ستصاب بصدمة هائلة مهما كانت الطريقة التي سنعرض فيها الأمر. دعني على الأقل أقوم بالأمر على طريقتي.

تردد آرون ثم هز كتفيه:

ـ حسناً جداً، لا أستطيع طبعاً أن أرغمك. ولكن عليك أن تدركي أن خالتك هذه قد لا تنهار بالسهولة التي تظنينها.

قالت بهدوء: هي خالتي، ولا أريد أن أسبب لها أي ضرر.

ـ حسناً، فليكن. قف في مركز البلدة يا بوتر، فنحن سنلاقي دومينيك هناك.

ـ نعم يا سيد جونسن.

عندما ارتدّ بوتر إلى مركز البلدة، رأت ديبرا سيارة دومينيك العاجية واقفة في موقف السيارات الصغير.

قال آرون: «حسناً، هنا نفترق إذا كان هذا ما تريدينه».

فقالت: «إنه ما أريده حقاً. تعرف... تعرف العنوان، أليس كذلك؟»

ـ نعم، العثور عليه سهل.

ـ بإمكان أي شخص أن يرشدك إليه.

ونزلت من السيارة الفارهة بكراهية غريبة وقالت:

ـ امنحني نصف ساعة وحدي معها ثم يمكنكم الحضور.

تقدم دومينيك نحوهم بخطوات واسعة: ما الأمر؟

نزل آرون من المرسيدس.

ـ ديبرا تريد أن تذهب لرؤية خالتها أولاً وحدها وقد وافقتها على ذلك وسنلحق بها فيما بعد.

سأله دومينيك: هل البيت بعيد؟

أجابت ديبرا دون أن تنظر إليه: لا، ليس بعيداً جداً.

فقال دومينيك: هيا.. سأوصلك.

ـ هذا غير ضروري.

هتف آرون: «لا تكوني مستقلة بهذا الشكل اللعين! دعي دومينيك على الأقل يقلك إلى البيت».

فهزت كتفيها: لا بأس، ولكنه ليس بعيداً.

عندما جلس في السيارة العاجية نظر دومينيك إليها مستفهماً ثم قال: «هل أنت خائفة؟»

فغصت بريقها: قليلاً.

استدار بالسيارة تبعاً لإرشادها. كان يدير عجلة القيادة بخبرة بالغة. وتمنت لحظة أن يأتي معها، ولم تعلم لماذا، ولكنها شعرت فجأة بالأمان

www.elromancia.com

معه أكثر مما شعرت به مع آرون.

وكأنه أحس بترددها، إذ نظر إليها مرة أخرى:

ـ هل أنت واثقة من أنك ستسيرين في هذا الأمر وحدك؟ إنني مستعد لأن أواجه غضب آرون وآتي معك الآن.

ترددت ديبرا لحظة واحدة فقط، ثم هزت رأسها:

ـ كنت.. كنت أحب أن أقول نعم، ولكنني لا أستطيع، إنها مشكلتي وليست مشكلتك.

فقال وهو يوقف السيارة: «لا بأس، هل هذا هو البيت؟»

قالت وهي تفتح باب السيارة وتخرج منها:

ـ نعم، وشكراً لك على كل حال.

بدت الرقة في عينيه لحظة، فشعرت فجأة بأنفاسها تتوقف. ثم ابتعدت بسرعة وسارت مجتازة بيوت «ريفر ووك» الضيقة.

قرعت ديبرا الجرس قبل أن تدخل مع أن لديها مفتاحها. لم تكن تريد تكدير خالتها دون ضرورة.

كان كل شيء كما عهدته، نفس السجادة الرمادية في الردهة، ونفس طلاء الأبواب الأسمر. أغلقت الباب خلفها ثم استندت إليه مرجئة لحظة مواجهتها لخالتها... كان في حلقها غصة، وفتشت في حقيبة يدها تبحث عن سيكارة. وفي تلك اللحظة خرجت جوليا وارن من باب المطبخ لكي تجيب جرس الباب، وعندما رأت ديبرا بدا على وجهها الذهول وعدم التصديق.

هتفت: «ديبرا، هذا غير ممكن. لم يمض أسبوع منذ تلقيت آخر رسائلك، ولم تذكري فيها شيئاً عن عودتك».

ثم لاحظت وجنتي الفتاة الشاحبتين، فضاقت عيناها الزرقاوان. حدقت ديبرا إليها ثم انتصبت واقفة وتقدمت منها وهي تبتلع ريقها بصعوبة:

ـ جئت.. جئت إلى الوطن لأن شيئاً حدث، شيئاً عليّ أن أتحدث

معك بشأنه.

توترت ملامح جوليا: أهذا هو الأمر؟

ـ نعم، هل يمكننا الذهاب إلى غرفة الجلوس؟ لا يمكننا التحدث هنا.

أومأت جوليا برأسها ثم فتحت باب الغرفة وهي تراقب ديبرا بشكل غريب. كان في عينيها نظرة حذرة، بينما شعرت ديبرا بقوتها تفارقها. كيف يمكنها أن تفتح مثل هذا الموضوع؟ كيف يمكنها أن تسأل خالتها عن.. عن أمر.. لعين كهذا؟

وقفت ديبرا في غرفة الجلوس وظهرها إلى المدفأة التي كانت فارغة الآن رغم برودة الجوّ. أخرجت علبة دخانها وأشعلت سيكارة متوقعة اعتراض خالتها المعتاد، ولكن هذا لم يحدث. لم تعلق جوليا وارن بشيء وإنما وقفت مشبكة ذراعيها فوق صدرها... أخذت ديبرا تمعن النظر في ملامحها الصلبة وفي شعرها الذي خطه الشيب. أرادت أن تجد بعض الشبه بين جوليا وبين الصورة التي رأتها لإليزابيت ستيل. كان هذا صعباً ومع ذلك كان هناك شيء متعذر تحديده جعل قلبها يغور بين أضلعها.

بللت شفتيها الجافتين بلسانها، وحاولت أن تجد الكلمات لتقول ما يجول في ذهنها. ولكنها لم تستطع، وبدلاً من ذلك شعرت بالدموع تتجمع في مآقيها، فأحنت رأسها غاضبة من نفسها لتغلب مشاعرها عليها. عند ذلك تكلمت جوليا وارن، فسألتها بصوت جامد النبرات:

ـ لقد عرفت، أليس كذلك؟ أو شككت في الأمر على الأقل.

حدقت ديبرا إليها ذاهلة: «ما... ما الذي تظنينني عرفته يا خالتي جوليا؟»

أجابت العمة جوليا وقد امتلأت عيناها برودة وكراهية:

ـ أنك ابنة اليزابيت ستيل. أعرف أنه ما كان لي قط أن أسمح لك بالسفر إلى أميركا. ولكن فليساعدني الله، فقد ظننت أن حظك في معرفة ذلك يكاد يكون معدوماً. كيف عرفت؟

هزت ديبرا رأسها:

- انتظري، لا تلقي عليّ هذا السؤال! أخبريني، هل أنا ابنة اليزابيت ستيل؟

فهزت جوليا كتفيها: نعم، أنت ابنتها.

- ولكن.. ولكن.. يا إلهي.

وأجهشت باكية.

أخذت جوليا وارن تنظر إليها بجمود. وشعرت ديبرا بالدوار والغثيان، فتهالكت على كرسي منخفض محاولة تمالك نفسها.

قالت جوليا دون أن تحاول الانتقال من مكانها أو محاولة التخفيف عن الفتاة:

- اهدئي! كم تعلمين من الأمر؟

هزت ديبرا رأسها وجففت عينيها محاولة التمسك بالهدوء:

- لا.. لا أدري، لقد تعرفت إلى.. آرون.. آرون جونسون الذي أخبرني.. بأنك قد تكونين شقيقة اليزابيت. هل هذا صحيح؟

- نعم، أنا شقيقتها مع الأسف.

- لماذا؟ لماذا؟ لماذا لم تخبريني؟

فقالت جوليا بغضب: «وماذا هناك لأخبرك؟ أن أمك ليست أكثر من مومس..؟»

- آه، لا.

بدت جوليا الآن مفعمة بالحماسة:

- آه! نعم. ما الذي تريدين معرفته يا ديبرا؟ هل تريدين أن تعلمي من هو أبوك؟

ارتجفت ديبرا للكراهية في صوت خالتها:

- خالتي جوليا..

- لا، إهدئي. حسناً، سأخبرك بكل شيء.. بكل تلك الأمور الفظيعة.

- أرجوك يا خالتي، لا تكوني بهذا الشكل. لماذا تكرهين أمي إلى هذا الحد؟

تقدمت جوليا بغضب إلى ديبرا ووقفت تنظر إليها بعينين عنيفتين:

- سأخبرك لماذا أكره أمك، لقد سرقت أمك زوجي. آه! نعم، هذا يدهشك، أليس كذلك؟ لم تعلمي قطّ أنه كان لي زوج، أليس كذلك؟

هزت ديبرا رأسها بذعر بالغ:

- لا؟ حسناً، كان لي زوج. عندما هربت إليزابيت إلى أميركا لكي تصنع لنفسها مجداً، بقيت في البيت وتزوجت من رجل، رجل مهذب محتشم، أو هكذا صوّرته لي حماقتي.

هتفت ديبرا وهي ترتجف:

- آه، لا.

- آه، نعم. بعد أن أصبحت اليزابيت مشهورة جاءت إلى الوطن لترانا في رحلة سريعة.. كانت قد تركت زوجها في البيت، نعم، كان لها زوج هي أيضاً. هل كنت تعلمين هذا؟

أومأت ديبرا برأسها.

- نعم، حسناً. لقد تركت آرون المسكين الطيب في البيت. لقد تزوجته فقط لكي تستفيد منه، إذ لم تهتم بأحد إلا بمقدار فائدتهم لها. لقد صدمك هذا، أليس كذلك؟ ولكن أمك لم تكن قديسة، فلا تفكري في أنها كذلك أبداً. حسناً، جاءت لتراني وترى أرنولد زوجي، ولم يكن مضى على زواجنا مدة طويلة، وكان أرنولد رجلاً جذاباً.

وأطلقت جوليا ضحكة جافة وهي تتابع:

- لم تكن اليزابيت لتعفّ عن رجل جذاب. وأنا أترك لك تصوّر ما حدث.. لم تكن تستطيع القيام بأيّ شيء في أميركا دون أن يعلم آرون. وهكذا جاءت إليّ، إليّ أنا.. تصوّري هذا. أن تأتي إليّ، لم أصدّقها في البداية، ولكن أرنولد.. آه، يا إلهي! ما أفظع ما كان!

صرخت ديبرا الآن بضعف، وأصابعها في أذنيها: «آه، لا».

ـ آه، نعم! تلك كانت أمك العزيزة بأكملها. لم تهتم مثقال ذرة لما حدث لي ولأرنولد ما دام لم يعلم بذلك أحد. رفضت في البداية القيام بأي شيء في هذا الأمر، عند ذلك هددتني أليزابيت بأن تشيع الأمر. لم أصدق أنها تفعل ذلك، فنتيجة ذلك ستكون أسوأ لها منها لي، ولكنني لم أستطع المجازفة. وهكذا أخبرتها أن بإمكانها البقاء حتى تلد طفلها، وبعد ذلك أدّعي أن الطفل لي، شرط أن ترحل دون عودة.

رفعت ديبرا رأسها: ثم فعلت ذلك.

ـ نعم، لقد انتقلنا من الشقة التي كنا فيها عندما حان وقت ولادة الطفل، وبعد ذلك عادت أليزابيت إلى أميركا.

أحنت رأسها، فظنت ديبرا لحظة أنها كانت تبكي، ولكن لم يكن على وجهها سوى علامات القنوط:

ـ قد تظنين أنه لا يمكن أن يحدث شيء أكثر من هذا. ولكننا لم نفكر في مشاعر زوجي إزاء كل ما حدث، فعندما كانت اليزابيت هنا كان يبدو كرجل معتوه... أظن أنه حقاً كان يكرهها في ذلك الحين.. ولكن عندما ولد الطفل الذي هو أنت، ورحلت أليزابيت، تملكه الوجوم والاكتئاب، ولم أستطع معرفة ما بنفسه. أما الآن فأدرك أنه أحبّ أمك. وبعد شهرين من رحيلها سار شارد الذهن أمام حافلة في الشارع فصدمته وقتلته على الفور.

ـ آه، لا.

شعرت ديبرا بالدم يجري بارداً في عروقها. لم يخطر ببالها قطّ شيء كهذا.

تنهدت جوليا: عندما سمعت أليزابيت بموت أرنولد عادت إلى الوطن. كانت قد تغيرت هي أيضاً، وأرادت أن تأخذك.. أنت الشيء الوحيد الذي بقي لي من أرنولد.

رفعت ديبرا عينيها إليها: وماذا حدث؟

ـ سأخبرك بما حدث.. لم أسمح لها أن تحصل عليك. أتراها

تصورت أنني سأسمح لها بأخذك بعد ما أخذت مني كل شيء؟ لا، بل أخبرتها بأنها إذا جاءت مرة أخرى لتراك فإنني سأفضحها وأقول كل شيء. وشهادة ميلادك باسمها الحقيقي اليزابيت موريسون واسم أبيك آرون.

تمتمت ديبرا بضعف: «ولكنها أرادت أخذي فعلاً».

ـ نعم، أرادت أخذك. لقد أدركت عند ذلك ما فعلت. قالت إنها ستخبر آرون بالحقيقة، ولكن آرون لم يكن سوى جانب صغير من كل هذا. فلوشاعت القصة بالطريقة التي هددتها أنا بها لدمّر ذلك مهنتها ومستقبلها. أيمكنك أن تتصوري عناوين الصحف (ممثلة مشهورة على علاقة مع زوج أختها؟)

رفعت ديبرا يداً مرتجفة إلى فمها: كفى، كفى، هذا فظيع.. فظيع.

ـ كتمت عنك الحقيقة لأجلك ولأجلي.

هزت ديبرا رأسها: هذا.. هذا كثير. لا أستطيع استيعابه.

ـ لماذا؟ ماذا كنت تعتقدين؟ وماذا يعتقد آرون؟ أنك قد تكونين ابنته؟ يا لها من نكتة!

هزت ديبرا رأسها قائلة بصوت مرتجف:

ـ لا تكوني قاسية، فآرون رجل رائع وكان رفيقاً جداً بي.

قالت خالتها هازئة: «رجل رائع. أتساءل عما إذا كان سيبقى رائعاً عندما يعلم الحقيقة؟»

ـ هذا يكفي.

أجفلت المرأتان لدى سماعهما هذا الصوت الآمر غير المتوقع.. ارتدّت جوليا لتواجه الرجل الذي كان واقفاً عند عتبة الباب وعيناه الزرقاوان العنيفتان تنظران إليها ببرودة.

هتفت به: «ماذا تفعل هنا؟»

ثم عادت تواجه ديبرا التي وقفت الآن وهي ترتجف.

ـ من هو هذا الرجل؟ وكيف يجرؤ على دخول منزلي بهذا الشكل؟ ظننتك جئت وحدك؟

قال دومينيك ماكجيل قبل أن تجيب ديبرا:

ـ لقد جاءت بمفردها فعلاً، ولكنني لم أستطع أن أتركها تواجه الأمر وحدها. والحمد لله لأنني لم أفعل هذا، لأنني حسب معرفتي بديبرا واثق من أنها لن تنقل هذه القصة إلى آرون أبداً.

سألته ديبرا بصوت مرتجف: «منذ... منذ متى وأنت هنا؟»

أجاب وهو يتفرّس في وجهها الباكي:

ـ منذ وقت كافٍ، ولكنني لم أستطع أن أقطع الحديث قبل الآن. كان عليّ أن أعرف القصة بأكملها.

أمسكت جوليا بكتفي ابنة أختها غاضبة.

ـ أخبريني، من هو هذا الرجل؟

ـ إنه.. إنه دومينيك ماكجيل. كاتب ومؤلف مسرحيات وأفلام.

تركتها جوليا وعادت تواجه دومينيك:

ـ آه، نعم، لقد سمعت بك. أظنك واحداً ممن كانوا يدورون في فلك أليزابيت؟

فقال ببرودة: «يمكنك أن تقولي ذلك».

ثم نظر إلى ديبرا: أظنك تدركين أنّ القصة التي سمعتها كانت تروي جانباً واحداً فقط من القصة، لذا طبيعي أن تكون محرّفة.

لم تستطع ديبرا السيطرة على ارتجافها، فتقدم دومينيك منها يأخذها بين ذراعيه. شعرت ديبرا بدموعها الحارة تنهمر على وجنتيها تبلل صدر سترته، ولكن عندما حاولت الابتعاد، تمتم قائلاً:

ـ استرخي يا صغيرة، فقد عانيت بما فيه الكفاية.

ونظر إلى جوليا وارن، وقال بعنف:

ـ أظنك راضية الآن فقد حققت انتقامك. أليس كذلك؟ لا أدري ما الذي كنت تنتظرينه، وأنت تقررين أخيراً أن تخبريها بالحقيقة. أليس كذلك؟

ردت جوليا ثائرة: «إنها ابنة أرنولد أيضاً. كيف تجرؤ على التحدث

إليّ بهذا الشكل؟ أنت سيء مثلها تماماً، لا تهتم إلا برغباتك الأنانية.

فقال بخشونة: «مهما كانت صفات أليزابيت، فليست الأنانية واحدة منها. نعم، كانت طموحة وكلنا كذلك. أنا أعلم أن ما فعلته بك كان خطأ حقاً، ولكن تذكري أن الحب يحتاج إلى شخصين، وزوجك القديس لم يكن أحسن منها ولا أسوأ».

شدّت جوليا على قبضتيها:

ـ اخرس. عليك اللعنة، فأنت لا تعلم شيئاً عن الأمر.

رد عليها ببرودة: «كنت أعرف أليزابيت وأعرف أنها كانت مخلوقة كريمة محبة. عندما تزوجها آرون، كان يعلم ما هو مقدم عليه، فهو لم يتوهم أنها كانت تحبه».

تخلصت ديبرا منه قليلاً، ثم قالت له:

ـ قال آرون إنك لم تكن تعلم أنهما كانا متزوجين.

ـ بل كنت أعلم.. لقد أخبرتني أليزابيت بذلك بنفسها. ولكن هذا خارج الموضوع، أما الحقيقة فهي أن أليزابيت أحبت أرنولد ذاك فترة، كما أحبها هو، وأنت نتيجة ذلك الحب. لم تكن المسألة كارثة دنيئة كما تصورها هذه المدعوّة خالتك. وبما أنني أعرف أليزابيت، فأنا لا أستطيع أن أصدق أنها تتركك دون أن تتأكد من تلقيك كامل الرعاية. تذكري أنها تركتك مع أبيك، وعندما مات حاولت استعادتك.. على خالتك أن تجيب عن أسئلة كثيرة. حسناً، يمكنني أن أفهم وجهة نظرها.. كانت وحيدة تتملكها المرارة والتعاسة، ولكن عندما أرادت اليزابيت أن تراك، أنكرت عليها حقها في ذلك. تذكري كلماتها (أخبرتها بأنها إذا جاءت مرة أخرى لتراك فإنني سأفضحها وأقول كل شيء) هل هذه كلمات امرأة لا تشعر بالحسد والكراهية؟

ابتعدت ديبرا عنه شاعرة بالضعف وتشوش الذهن وبالحاجة إلى وقت تفكر فيه. أخيراً همست: «أين أنا من كل هذا؟»

قالت جوليا هازئة: «أنت ثمرة علاقة غير شرعية ولا يريدك أحد».

نظر دومينيك إليها والاشمئزاز يكسو ملامحه، وتمتم يقول:

ـ إياك أن تقولي هذا الكلام مرة أخرى، وإلا نسيت أن عليّ أن أكون سيداً مهذباً.. لم أضرب امرأة قط في حياتي، ولكن هناك دوماً بداية لكل شيء.

أحنت جوليا كتفيها وقالت بغضب مكتوم:

ـ يبدو الأمر لك لعباً.. لقد دمرت أليزابيت حياتي.

أومأت ديبرا برأسها قائلة: «هذا صحيح يا دومينيك، هذا صحيح».

تحرك دومينيك بضيق:

ـ وماذا في ذلك يا ديبرا؟ مثل هذه الأشياء تحدث كل يوم. إنني لا أجيزها أو أتغاضى عنها، ولكن هل نجعل هذا سبباً يمنعنا من الاستمرار في حياة كتبت علينا؟

ـ لا أدري، لا أدري.

ثارت أعصاب ديبرا بشكل هستيري، فقرر دومينيك أن الوقت قد حان لكي يستلم زمام الأمور بنفسه، فقال:

ـ إنّ فهم أمر كهذا يستغرق وقتاً، ولا يمكنك استيعاب كل شيء في وقت واحد، أعلم هذا.

نظرت إليه جوليا وسألته ساخرة: «ماذا تقترح إذن لها؟»

ـ أقترح أن تعود إلى لندن معنا، أنا وآرون. نعم، آرون هنا، وهو سيقرع بابك في أية لحظة الآن، ولكن لا فائدة من البقاء هنا وإخباره بكل ما حدث، فسأخبره بذلك بنفسي.

قالت جوليا بحدة: «هذا بيت ديبرا ولن أدعها تذهب».

رد عليها ببرودة: «لا يمكنك منعها، وأنا لن أرحل بدونها».

قالت ديبرا بهدوء: «لا يا دومينيك.. سأبقى».

قال ثائراً: «فليذهب قرارك هذا إلى الجحيم».

هتفت جوليا بحرارة: «أتريدها أن تذهب معك تبعاً لرأيك المنحرف بدلاً من رأيي؟»

ـ إن رأيي ليس بانحراف رأيك أو قسوته، فأنت تريدين قتل نفسيتها.. تريدين أن تقهريها لأنك لم تستطيعي قهر أليزابيت. أليس هذا صحيحاً؟

رددت قولها: «هذا بيت ديبرا، فإذا خرجت معك فلن أستقبلها في هذا البيت بعد ذلك أبداً».

قالت ديبرا ضارعة وهي تعض شفتها:

ـ آه، يا خالتي جوليا.. لا تكوني بهذا الشكل، أرجوك.

قالت جوليا: «إذا بقيت هنا، فسيكون هذا حسب شروطي. انبذي كل هذه الأشياء من ذهنك وتذكري أننا عشنا معاً اثنتين وعشرين سنة. فهل بإمكانك أن تغيري في نصف ساعة عادات حياتك كلها؟»

ـ خالتي جوليا..

قالت وقد زاد غضبها: «اخرسي...».

فقال دومينيك وهو يمر بيده على شعره بقلق:

ـ نعم، كفّي عن هذا ديبرا.. فكري جيداً قبل أن تلزمي نفسك بتعهدات.

تنهدت ديبرا: كما سبق وقلت لي، أنا بحاجة إلى وقت أفكر فيه.

قالت جوليا: «حسناً، أنا لن أمنحك وقتاً. وفي الواقع، لا يهمني أبداً ما تفعلينه، فأنت لست الفتاة نفسها التي سافرت من هنا، ولا أظنني أعرفك بعد الآن».

حملقت ديبرا فيها، قائلة: «آه، يا خالتي.. إنك لا تعنين ذلك».

ـ لا أعنيه؟ ألا تصدقينني؟ اذهبي إذن مع هذا الرجل فقد ينفعك ذلك. ولكن لا تعودي إليّ راكضة عندما يتحطم عالمك الصغير الجميل.

تملك الرعب ديبرا، فخالتها ليست كما كانت تظنها على الإطلاق. هذه المرأة الحاقدة المليئة بالمرارة لا يمكن أن تفكر بسوى كراهيتها لأختها، كراهية نشأت عن أحداث مضت لا تريد ديبرا أن تفهمها على الإطلاق.

لم يستطع دومينيك الانتظار أكثر من ذلك فأمسك بذراع ديبرا ودفعها نحو الباب. . التفتت ديبرا إلى الخلف تنظر إلى خالتها تدعو الله أن تحدث معجزة، أو أي شيء يمحو كل هذا الألم والتعاسة الذي سببته خالتها لها، ولكن جوليا لم تفعل سوى الإشاحة والابتعاد عنهما بحيث لم تر ديبرا منها سوى ظهرها.

* * *

استلقت ديبرا على سريرها في «فندق لندن»، فاترة الهمة. . . كانت تشعر بالتنميل وبلادة المشاعر وكانت عاجزة عن تقرير ما ستفعله في حياتها. لم تشأ أن تفكر في ذلك المشهد الفظيع في بيت خالتها رغم أنه لم يبرح ذهنها قط. . . شعرت بأن كل ذلك لم يكن سوى كابوس مخيف، وعندما خرجت من البيت تملكتها كآبة لا تعرف الراحة.

عندما خرجت مع دومينيك من البيت، كان آرون جونسون على وشك الخروج من سيارته عند البوابة، ولكنه لدى إشارة من دومينيك عاد فاستقر في سيارته مشيراً إلى السائق أن يتابع سيره، أما دومينيك فقد وضع ديبرا بحزم بجانبه في المقعد الأمامي. . لم يتكلم معها تاركاً إياها للصمت الذي استغرقت فيه، ولكنه أدار الراديو فانسابت موسيقى هادئة عذبة أراحت أعصابها وأزالت توتر الجو.

شعرت ديبرا نحوه بعرفان الجميل، ليس فقط لأنه أنقذها من ذلك الوضع الصعب بل لوجوده هناك ولتمكّنه من إطلاعها على الحقيقة لأنها، كما قال، ما كانت لتستطيع القيام بذلك.

عادوا إلى الفندق مباشرة فأوصلها إلى غرفتها وتركها فيها. . وها هي ذي الآن مستلقية في هدوء غرفتها، تشعر بالوحدة البالغة للمرة الأولى في حياتها.

أشعلت سيكارة أخذت تنفث دخانها إلى أعلى. . . ما الذي ستصبح عليه حياتها؟ لم يعد لها بيت ولا وظيفة. كيف بإمكانها العودة الآن؟

انقلبت على بطنها شاعرة بالرغبة في البكاء، ولكن البكاء لا يحل المشاكل. أخذت تتساءل عما إذا أخبر دومينيك آرون بالحقيقة. وعمَّا كان جواب آرون؟ الآن عرفت أن ذلك الإحساس بالترابط بينها وبينه لم يكن سوى وهم. ربما. . . ربما سيكرهها الآن، مثل خالتها جوليا، فقد تعرض هو للخيانة بقدر ما تعرضت لها جوليا.

لم تكن مهتمة بخلو وجهها من الزينة وتبعثر شعرها بفعل الوسادة، لذا عندما سمعت طرقاً على الباب، أجابت الطارق دون اهتمام بأن يدخل.

وانقلبت على ظهرها تعض شفتيها تمنعهما من الارتجاف وهي تفكر: رباه! لا يمكنني احتمال مشهد آخر مثل الذي حدث مع الخالة جوليا.

جلست مجفلة عندما رأت أن القادم هو دومينيك. . مرت بيدها على شعرها تحاول تنظيمه، ثم دفعت قدميها في حذائها.

أغلق الباب واتكأ إليه وراح يتفرس فيها.

أشعل سيكارة ثم قال: «كيف حالك؟»

ـ لا. . لا بأس. شكراً، لا بد أن شكلي مشعث.

قال باسماً: «لا، شعرك فقط ولكنني أحبه إذ يظهرك كتلميذة مدرسة».

احمر وجهها: «أحقاً؟ لا أدري ما إذا كان هذا مديحاً».

حاولت أن تبدو طبيعية ولكن صوتها تهدّج في النهاية.

تقدم دومينيك منها وجلس على كرسي بجانبها، ثم نظر إليها متمتماً:

ـ كان يوماً صعباً للغاية، أليس كذلك؟

أومأت خافضة البصر، دون أن تجرؤ على الكلام.

ـ لا بأس، فقد انتهى كل هذا، والأمور إلى الأحسن وليس إلى الأسوأ.

هزت كتفيها: هل. . هل أخبرت آرون؟

ـ نعم.

ـ و. . . وماذا قال؟

ابتسم دومينيك وهو يلمس وجنتها برقة: ماذا ظننته قال؟

ارتجفت ديبرا، ليس مما قاله آرون بل بسبب لمسة دومينيك، فقد كان لذلك فعل الكهرباء في جسمها، وتساءلت بعنف عما يجعل له ذلك التأثير فيها.

ـ لا.. لا أدري.. هل كان.. غاضباً؟

ـ نعم.

ـ آه!

وحدقت فيه بعينين متسعتين. هز دومينيك رأسه:

ـ لكنه لم يكن غاضباً للسبب الذي تظنين، بل لأن خالتك عاملتك بذلك الشكل.

ـ ولكن.. أعني.. ماذا بالنسبة إلى.. أبي؟ أعني.. كان يظنني.. آه! إنك تعلم ما أعني.

ـ أعلم بالتأكيد، ولكن آرون ليس صغير العقل، فأنت تمثلين له عودة أليزابيت ستيل إلى الحياة. هذا إلى أنه يحبك حقاً، وبما أن اليزابيت كانت زوجته عندما ولدتك، فذلك يجعل بينكما قرابة.

وقفت ديبرا وسارت نحو النافذة تنظر إلى الشارع دون أن تراه، ثم قالت بصوت منخفض: «إنك.. إنك لا تخدعني، أليس كذلك؟»

ـ ولماذا أفعل ذلك؟ لا يا عزيزتي، أنا جاد. آرون يعتقد أنك تشبهين أليزابيت في كل شيء، وهو يرى أنك ورثت موهبتها بجانب شكلها.

التفتت إليه بسرعة: آه، لا، لا، إنني لست ممثلة.

نهض دومينيك وتقدم إليها ووضع يديه على الحائط بجانبيها ومضى يتفرس فيها فشعرت ديبرا بأنفاسها تتوقف. كان من القرب منها بحيث رأت كل خط في وجهه؛ كثافة حاجبيه، بياض أسنانه، وشمت رائحة عرقه حتى. أرادت أن تقترب منه أكثر.. وأن تتخلل شعره بأصابعها ولا تتركه يبتعد عنها أبداً.

سألها موقفاً أفكارها المجنونة:

ـ ما يدريك بأنك لا تحسنين التمثيل؟ لقد قدمت امتحاناً جيداً كان إيميت مسروراً منه تماماً. ألم يسبق أن قمت بالتمثيل كهاوية؟

قالت متلعثمة: «نعم، في المدرسة فقط».

ـ وهكذا يمكن لآرون أن يصنع منك نجمة، فهذا ما يريده، فليس لديك ما تقومين به.

أحنت ديبرا رأسها ولوت أصابعها بتوتر:

ـ لا، لا.. لا يمكنني العودة إلى أميركا، فأنا إنكليزية وهذا وطني.

قال بإصرار: «ليس لديك وطن حالياً.. انظري واستمعي إلي. لا ترفضي كل هذا بحق الله، ليس الآن، يجب أن يكون هذا يوم ميلادك».

هزت رأسها دون أن تنظر إليه، فشتم بصوت منخفض: «ديبرا، ديبرا، ما الذي تخافين منه؟ أين الضرر في ذلك؟ إن آرون لن يؤذيك وأنا أضمن لك هذا. كما أنه لم يعد شاباً، ووجودك يسعده كثيراً. أيمكنك أن تنكري عليه وعلى نفسك فرصة للسعادة؟»

ـ لا.. لا أعلم. لم أعد أعلم شيئاً، فأنا أشعر بالوحدة.. والضياع..

فقال برقة: «لا حاجة بك للإحساس بالوحدة. عندما نعود إلى كاليفورنيا، سيكون لديك الكثير من أوقات البهجة والمتعة، فأنت لم تبدئي حياتك بعد. وسيتساقط الرجال حولك».

عادت تهز رأسها: «آه يا دومينيك، إنك تسهّل الأمور».

ـ لكنها سهلة فعلاً. أين هي الصعوبة؟ بإمكان آرون أن يرتب كل التفاصيل لأجلك، وكل ما عليك هو الموافقة.

ـ ولكنني لا أريد أن أكون نجمة سينمائية.

ـ وما أدراك؟

تنهدت: آه! لا أدري. ولكنني لم أخلق لتُصوّرني الصحافة وتتحدث عني المقالات ويعاملوني كنجمة سينمائية، وإلا فلن أحظى بوقت لما أريد أن أقوم به من أشياء.

- وما الذي تريدين القيام به؟

- المطالعة وسماع الموسيقى وأشياء أخرى.

ضحك برقة: «آه! إنك حقاً فريدة يا عزيزتي. هنا من يقدم إليك الكرة الأرضية، وأنت تطلبين جزيرة منعزلة في الباسيفيك».

قالت باسمة: «حسناً، أنا بهذا الشكل، ولكنك على صواب في شيء واحد وهو أن لا أحد آخر يهتم بي».

عبس قائلاً: «كفى حسرةً على نفسك واستمتعي بالحياة.. سترين عندما يتكاثر الشبان حولك أنك لن تعودي إلى التفكير في أي شيء آخر».

قبضت يديها متوترة: ألا تكفّ عن معاملتي كمراهقة؟

قال ضاحكاً: «هذا أحسن فقد عدت ديبرا التي أعرفها. أما الكف عن معاملتك كمراهقة، فسيكون عندما تكفّين عن التصرف بهذا الشكل».

حملقت فيه بغضب.. كان هادئاً واثقاً محنكاً مستقل الرأي، وهذا ما أثار غضبها، فكيف له أن يكون محايداً جاف الشعور بهذا الشكل بينما هو يلهب كيانها وأحاسيسها كلما وقف بقربها، أرادت أن تمحو التهكم من ملامحه الجذابة، أن يهتم بها كما تهتم به.

قالت بعنف: «لماذا تظنني أتصرف كمراهقة؟ هل لأنني لا أغازلك طوال الوقت؟ هل لأنني لا أتجاوب مع رغباتك الواضحة؟»

ضاقت عيناه، فشعرت بالرضا لتمكنها أخيراً من إثارته.

أردفت: «أتظنني من الساذجة وعدم الخبرة بحيث لا أعرف عن الرجال؟ معلمة ريفية دون خبرة؟»

قال ببرودة: «لم أقل هذا، هل هذه طريقتك للتنفيس عن قنوطك؟»

احمر وجهها وشعرت بالتعاسة إذ لم تفلح إلا في إغضابه، وربما اعتبرها أكثر صبيانية مما ظنها.

- ولكنك تُمنّيني باتخاذ أصدقاء شبان وكأنني لم أعرفهم من قبل.

سألها بهدوء: «وهل كان لديك فعلاً؟»

أحنت رأسها: طبعاً كان لدي أصدقاء.

قال مشككاً: «أحقاً؟»

فقالت بغضب: «نعم».

- إذن فأنت تعتبرين نفسك عالمة بكل ما يتعلق بهذه الأمور؟

هزت كتفيها: لا شيء كثير في هذا ينبغي معرفته، أليس كذلك؟

ابتسم ساخراً مرة أخرى: إنها مسألة وجهة نظر.

أشاحت بوجهها فجأة غير قادرة على متابعة مثل هذا الجدل، أمّا دومينيك فسار نحو الباب، ثم وقف ينظر في ساعته قائلاً:

- بالمناسبة، آرون ينتظرك للعشاء الساعة الثامنة، وهي الآن السابعة والربع.

* * *

استعدت ديبرا للعشاء دون حماسة.. كانت تشعر بالخوف من مقابلة دومينيك مرة أخرى، فقد أساءت التصرف معه مع أنه كان شهماً معها هذا النهار.. لم تعرف ما الذي جرى لها فهي لم تتصرف قط بمثل هذا الشكل من قبل.

عندما دخلت إلى غرفة الاستقبال، وجدت آرون ينتظرها بمفرده، وعندما نظرت حولها مستفهمة، قال: «إن دومينيك وڤيكتور يتعشيان مع أصدقاء لهما وستيف مشغول».

بللت شفتيها الجافتين بلسانها:

- حسناً، أنا جاهزة للعشاء. هل نذهب؟

- طبعاً، لقد حجزت مائدة في مطعم «مانديني»، الطعام فيه بالغ الجودة.

حتى آرون بدا متوتراً قليلاً، وتبعته ديبرا دون تعليق.

كان مطعم مانديني صغيراً ولكنه غالٍ جداً. وبدا لها أن آرون من زبائنه المهمين، فقد أعطيت لهما مائدة قرب الفرقة الموسيقية.

لم يتحدث آرون كثيراً أثناء الطعام، وهذا ما جعل ديبرا تتساءل عما إذا كان دومينيك متفائلاً قليلاً في تقويمه لمشاعر آرون، فربما غيّر رأيه

بالنسبة إليها كما فعلت خالتها.

قال وهما يشربان القهوة: «والآن، فلنتكلم عنك وعن مستقبلك».

تمتمت تسأله: «وماذا عن مستقبلي؟»

قال مقطباً: «ألم يشرح لك دومينيك الأمر؟»

فهزت رأسها:

ـ «لا أدري، ربما فعل بشكل ما. لكنني لا أعتقد أنك تريدني أنا بل تريد صورة طبق الأصل لأليزابيت ستيل.. لا أريد أن أكون مثيلة لامرأة أخرى، بل أريد شخصيتي الحقيقية. أنا آسفة لأنني خيّبت أملك بي من جميع النواحي».

أمسك بيدها: إياك أن تقولي مثل هذا الكلام، ديبرا. أظنك أسأت فهم ما قاله دومينيك لك، أنا أريدك لنفسك؛ أنت الشابة الرقيقة الحلوة. لقد بقيت مدة طويلة وحيداً إذ لم يكن هناك من يقدر أن يحل مكان أليزابيت. والآن يوجد أنت، ولكنني لا أريد منك أن تفعلي ما لا تريدينه، فإذا ذكر دومينيك شيئاً عن إعادة إخراج فيلم «أڤينيرا» فما ذلك إلا لأنه أول ما خطر ببالنا. إننا نتعامل مع الأفلام يا ديبرا، وهذا يعني شباك التذاكر، وكونك ابنة اليزابيت ستيل يعني شيئاً مثيراً، لا أنكر هذا. ولكن إذا لم تشائي تجربة التمثيل فهذا شأنك، وافعلي أي شيء آخر تريدينه شرط أن توافقي على العودة معي إلى كاليفورنيا والسماح لي برعايتك.

سألته غير مصدقة: «أتريد القيام بذلك؟ بعد.. بعد كل ما حدث اليوم؟ أظن أنّ دومينيك أخبرك بكل شيء».

ـ بكل شيء، وقبل أن نتابع الحديث أحب أن أقول شيئاً.. عندما سبق وتحدثنا عن اليزابيت، أخبرتك عن ظروف زواجنا. أخشى أني جعلتك ضد أمك دون وعي مني، ولكنني كنت أعلم أنها لا تحبني. وعندما قلت لك إنني لن أسامحها لعدم إخبارها لي عنك كان ذلك عندما ظننت أنك.. قد تكونين ابنتي، ولكن بما أنها كانت تريد أن تحضرك إلى أميركا، فهذا يعني أنها كانت ستخبرني بكل شيء.. كانت تتصرف أحياناً

بنزق وحماقة، ولكنها كانت دوماً تشيع الحب حولها وليس الكراهية. رغم ما قالته خالتك عنها، فأنا أقسم أن أليزابيت ليست تلك الأنانية الجشعة التي وصفتها، ولا هي من تسرق أزواج الأخريات. بل بالعكس، فكما أخبرك دومينيك، كانت امرأة سخية ولا يمكنها تحطيم سعادة الآخرين.

ـ ولكنها فعلت، وسرقت زوج خالتي.

ـ أحقاً؟ أم هو الذي سرقها؟ هنالك دوماً طرفان في الموضوع، ولكن يبدو أن أباك أغرم بأمك فكنت أنت ثمرة ذلك فلا تشعري بالحقد مثل خالتك، فالحياة كلها أمامك. وأنا أقدم إليك فرصة لتتحرري منها ولتعودي إلى نفسك فلماذا لا تقبلينها؟

ـ لا يمكنني السماح لك بأن تعيلني.

ـ ولكن أمك تركت ثروة صغيرة..

ـ لا أريد ذلك المال.. خصوصاً الآن.

هز رأسه ساخطاً: لا بأس إذن، افعلي ما أقوله لك ومثّلي فيلماً. أعيدي فيلم «أڤينيرا» ولك أن أدربك بنفسي كما فعلت مع أليزابيت. وهكذا تصبحين مستقلة تماماً وستكسبين ما يجعلك تعيشين في بحبوحة.

قالت عابسة: «بما أنه لا يمكنني القيام بذلك من دونك، فيبدو هذا أشبه بالإحسان».

ضرب بيده على جبينه: ديبرا، إنك ابنة زوجتي الميتة فدعيني أساعدك بهذا على الأقل لأجلي إذا لم يكن لأجلك، فلا تكوني بهذه الكبرياء السخيفة. دعيني أساعدك، أرجوك.

نظرت إليه وشفتاها ترتجفان: إنك شهم للغاية.

ـ أنا؟ أنا لست شهماً بل رجل أعمال. يا ابنتي العزيزة، سأفكر فيك دوماً بهذا الشكل. عودي معي إلى كاليفورنيا ودعيني أهتم بك ولو لفترة قصيرة.

شعرت ديبرا بغصة في حلقها:

ـ آه يا آرون! تجعلني أشعر بالخجل وبأنني ناكرة للجميل. لا بأس، سأعود معك.

وفيما بعد، وهي مستلقية على سريرها في الفندق، أخذت تتساءل عما إذا كانت رغبتها في الاستمرار في رؤية دومينيك، هي السبب الأكبر لقبولها العودة إلى أميركا.

***

٦ ـ غرقت في بحر النيران

نظرت ديبرا إلى نفسها في المرآة المستطيلة، محاولة أن تقرر ما إذا كان الثوب الذي تقيسه مناسباً. تنهدت وأخذت تمرّ بيدها على شعرها، فقد بدت بطراز شعرها الجديد امرأة محنكة.. كان ثوبها من المخمل الأسود طويل الكمين، أما تنورته فترتفع عن ركبتيها لتبرز رشاقة ساقيها.. كانت تعلم أنها لم تلبس قط مثل هذا الثوب الغالي الثمن، ولكنها كانت متوترة لأنها ستتناول العشاء في منزل دومينيك ماكجيل.

مضت ستة أسابيع على عودتها إلى أميركا مع آرون.. عادا وحدهما لأن دومينيك وروس سبقاهما، ولم تكن ديبرا رأت دومينيك وحده منذ تلك الليلة في الفندق في لندن، وكلما رأته لم يكن يتصرف نحوها بسوى التهذيب والحياد.

نظرت إلى ساعتها بضجر، ثم التفتت تنظر إلى غرفتها. كان منزل آرون في لوس أنجلس أروع منزل رأته ديبرا في حياتها، غرفه فسيحة مترفة تغطي السجادات السميكة أرضه، وتتناثر في أنحائه الأرائك والمقاعد الجلدية المصنوع من الخشب الأسود وتغطي جدرانه اللوحات الثمينة.

كانت الدعوات توجّه إليهما من كل مكان، وكتبت الصحف المقالات عنها عندما وجد آرون نفسه مرغماً على إبلاغهم ببعض قصتها. كان من الطبيعي أن يخفي الأمور الشخصية عنهم ولكنه صمّم على اعتبارها ابنته، أما إن كان الصحف والناس صدّقوا ذلك، فهذا شيء آخر.

www.liilas-romancia.com

تملك ديبرا في البداية الرعب والارتباك إزاء الأشياء الغريبة الرائعة التي تحدث لها. . . لقد أصر آرون على أن يملأ خزانة ثيابها بملابس تليق بكونها ابنته، ورغم أن كبرياء ديبرا الطبيعية قد ثارت على موقف آرون هذا، إلا أن غريزتها الأنثوية تغلبت على اعتراضها.

تعرفت إلى أصدقاء آرون الحميمين وزوجاتهم وقبلوها في دائرتهم. . تحدثت معهم تليفونياً وأصبح بإمكانها الإدلاء بأحاديث قصيرة معتادة في الحفلات هنا، فتتحدث وتتصرف كمضيفة.

لم يكن يقلقها سوى دومينيك، فعندما يكون حاضراً تفارقها كل حنكتها المكتسبة. . لم تفهم تماماً السبب في تأثيره هذا فيها. ولكنها عندما سمعت النساء الأخريات يتحدثن عنه وعن مقدار جاذبيته أخذت تعتقد أنها مثلهن، فشعرت بالغيظ من حماقتها.

شعرت بالارتياح عندما رحل بعد أسبوعين من وصولها إلى أميركا. . رحل إلى أميركا الجنوبية مع فريق تمثيل ليكتب لقطات من فيلم يمثل هناك. وافتقده آرون الذي يعتبره صديقاً حميماً للغاية، ما جعل من الطبيعي أن يكون أحد المدعوين إلى الحفلة التي أقامها دومينيك بعد عودته.

ما إن بدأت تهبط السلم الفسيح حتى دخل آرون الردهة ورفع بصره إليها، ثم هتف يقول:

ـ تبدين رائعة يا عزيزتي! لم أر هذا الثوب من قبل عليك، أليس كذلك؟

هزت رأسها باسمة: لا، وأظنه أعجبك.

ـ أعجبني. . إنه رائع. والمخمل يليق ببشرتك وخصوصاً المخمل الأسود.

هزت ديبرا رأسها وهي تصل إليه وتمسك بذراعه:

ـ لقد أنفقت عليّ الكثير من النقود حتى الآن يا آرون، وأشعر كأنني

أستغلك، فأنا لا أفعل شيئاً طوال اليوم سوى الاستلقاء في أنحاء المنزل، وعندما تعود في المساء تسألني إن كنت متعبة.

سألها بسرعة وهو يقبض على يدها: «هل تملكك الضجر؟»

ـ أضجر وتلك المكتبة الرائعة في متناول يدي؟ وتلك المجموعة البديعة من التسجيلات الموسيقية والسيارة الخاصة بي والأصدقاء الكثيرون يزورونني أو يتصلون بي؟ أنا طبعاً لا أشعر بالضجر.

فتنهد قائلاً: «أتساءل أحياناً يا عزيزتي عن ذلك. أرجو أن لا تخافي من أن تخبريني إذا كنت غير سعيدة، أريد أن تكوني سعيدة جداً هنا بحيث لا ترغبين في الرحيل».

قالت باسمة: «إنني سعيدة ولكنني مع هذا أشعر بأنني أستغلك، عليّ أن أعمل شيئاً».

ـ هل نظرت في النص الذي أحضرته لك؟

ابتعدت عنه قائلة: «نعم».

ـ ثم؟

ـ لقد قرأته كله، ودور لورا رائع بالنسبة لأية ممثلة ولكن ليس لي.

ـ لماذا لا؟

هزت كتفيها: «سأفسد الدور».

ـ حاولي على الأقل لأجلي.

فابتسمت: «هذا ابتزاز منك يا آرون».

ـ وماذا في ذلك؟ هل ستقومين به؟

ـ لا أستطيع الرفض إذا كان هذا ما تريده حقاً، ولكن تذكر يا عزيزي آرون أنني لست طفلة. إذا كان تمثيلي سيئاً فأخبرني ولا تجعلني أخدع نفسي.

ـ لا بأس، اتفقنا. هذا سيكون خبراً طيباً لدومينيك، أليس كذلك؟

ـ دومينيك؟

ـ طبعاً، فأنت تعلمين أنه كاتب التمثيلية.

ـ نعم.

ـ من الطبيعي إذن أن يكون له دور كبير في الفيلم، وإذا كان ثمة حاجة لإعادة كتابة أي فصل، فهو الذي يقوم بذلك.

احمر وجهها: «آه، فهمت».

نظر إليها عابساً: «ما هذا يا ديبرا؟ لقد لاحظت مؤخراً أنني كلما ذكرت دومينيك تتجهمين. هل تخاصمتما؟»

ـ آه، لا، لقد تأخرنا يا عزيزي، دعنا نخرج.

أومأ برأسه: «هيا بنا». ولكن التفكير كان في عينيه.

يقع منزل دومينيك في سانتا مونيكا على شاطىء المحيط الباسيفيكي. وأثناء الطريق أخذ آرون يحدثها عن جمال موقعه على الشاطىء قائلاً: «هناك تزلّج على المياه أيضاً، هل سبق أن وجربت ذلك؟»

فارتجفت: «لا، لا أحسن ذلك».

ـ لا بأس، سرعان ما ستتعلمين. دومينيك يقيم حفلات تزلج على الماء أحياناً، ولكنه لا يدعوني إليها، فقد كبرت على مثل هذه الأشياء.

كان منزل دومينيك أبيض محاطاً بأسوار عالية، وكانت البوابة مقفلة يحرسها رجل يرتدي ملابس رسمية، وبعد أن رأى هويتهما سمح لهما بالدخول إلى طريق يؤدي إلى فناء مرصوف بالحصى حيث رحّب بهما حاجب بملابس رسمية.

هتفت ديبرا وهي تنزل من السيارة:

ـ يا الله! هل هذا ضروري؟ ليس عندك كل هذه الإجراءات الأمنية يا آرون.

فابتسم: هذا صحيح، ولكن الصحافة لا تلاحقني على الدوام كما أنه ليس لديّ وجه يعجب النساء، هذا إلى أن دومينيك يملك مجموعة ثمينة من التحف والفضيات وهو، لهذا فقط، بحاجة إلى جهاز مانع للسرقة.

ضغطت ديبرا شفتيها محاولة تهدئة خفقات قلبها. أغضبها أن يبعث

رجل الاضطراب في نفسها لمجرد سماعها اسمه.

دخلا فناءً معقوداً بالقناطر قامت فيه نافورة متألقة.. كانت الأضواء المشعة من أماكن خفية تمنح المكان مظهراً خرافياً، وكان طريق مسقوف يدور حول المنزل الذي يحتشد بالضيوف.. رأت الفناء مبلطاً بمربعات الفسيفساء، ولكن المنزل مبني من الحجر، ذو شرفات بأعمدة رخامية لكل الغرف العلوية.

حيا آرون كثيرين من الضيوف، كما قدّم ديبرا إلى أصدقاء لم تعرفهم بعد. ثم جاء مضيفهم إليهم مرتدياً سترة السهرة السوداء وقد أضافت الأسابيع التي أمضاها تحت شمس البرازيل اسمراراً صحياً لبشرته السمراء بطبيعتها.. بدا في عيني ديبرا أشبه بنمر رشيق.. عيناه الزرقاوان فقط تبديان التضاد بينهما وبين عيني وحش الغابة الصفراوين.. ساورها إحساس خانق بعدم الكفاءة. أي امرأة يمكن أن تجتذبه إلى حد أن يضحي بحريته لأجلها؟

ابتسم لآرون بحرارة هازاً يده مصافحاً، ثم نظر إلى ناحيتها بعينين ضيقتين باردتين، وقال برقة: «مرحباً يا ديبرا، كيف حالك؟»

أجابته بلا مبالاة: «بخير شكراً. كيف حالك أنت؟»

أجاب وهو ينظر حوله وكأن هذه المواجهة أثارت سأمه: «لا بأس».

ثم عاد ينظر إلى آرون قائلاً:

ـ قابلني فيما بعد لأطلعك على كل المعلومات التي نحتاجها لأجل (الخطوات).

أومأ آرون يقول: «جيد، جيد».

ولكن عينيه كانتا مضطربتين وهو ينظر إليهما متفحصاً، ثم سأله: «متى سنأكل؟»

ـ في أي وقت تشاء. هناك مقصف في القاعة الخضراء، والرقص يدور في قاعة الرقص.. سأراك هناك فيما بعد. لا بأس؟

ـ لا بأس.

وأخذا ينظران إليه وهو يبتعد ليستقبل فوجاً آخر من الضيوف وصلوا لتوهم. ثم نظر آرون إلى ديبرا قائلاً: «هيا بنا يا عزيزتي، سنذهب إلى حيث تعلقين معطفك، ثم نتناول شيئاً من الطعام».

انضم ڤيكتور روس إليهم في القاعة الخضراء فابتسم لديبرا بحرارة ثم قال:

ـ مرحى، أخبرني دومينيك أنني ربما أجدك هنا.

ثم نظر إلى آرون: هل تمانع إذا سرقت رفيقتك لفترة؟

ـ لا طبعاً يا ڤيكتور، إلى أين ستأخذها؟

ـ إلى الرقص طبعاً. هل تقبلين يا ديبرا؟

ترددت ديبرا لأنها لم تكن ترغب في الذهاب مع ڤيكتور فقد بدا لها أن دومينيك جعله مرافقاً لها، ولكنها عادت فقررت الذهاب وهي ترى آرون ينظر إليها وكأنه يريد منها أن تذهب.

أخذ ڤيكتور بيدها إلى حيث سارا في الطريق الخارجي قاصدين قاعة الرقص، وأدهشها بقوله:

ـ تظنين أنني لم آت إلا بناءً لطلب دومينيك، أليس كذلك؟

هزت كتفيها: «حسناً.. أليس هذا هو السبب؟»

ـ لا، فقد سألت دومينيك أين تكونين لأنك اختفيت قبل أن تسنح لي فرصة الحديث إليك.

ابتسمت قائلة: «آسفة يا ڤيكتور. إنني فقط لا أريد أن أكون عبئاً على أحد».

قال وهو يضغط أصابعها: «هذه هي المرة الثانية التي تقولين لي فيها ذلك، ولكن رجاءً لا تقوليها مرة أخرى لأنني أكن لك إعزازاً كبيراً، وهذا ليس لأنك ابنة أليزابيت ستيل».

ـ لقد أصبحت حساسة جداً بالنسبة لهذا الأمر.

ـ نعم، كفّي عن هذا إذن فالناس يحبونك لشخصك. والآن هيا، هل يمكنك القيام بهذه الخطوات؟

ـ أظن ذلك.

شعرت بالمرح مع ڤيكتور على كل حال، فهو لم يطلب منها شيئاً. ومضت فترة تمكنت فيها من إبعاد دومينيك عن ذهنها، ولم تنظر حولها إلا بعد أن جلست على أريكة بانتظار أن يحضر ڤيكتور لهما شراباً.

عندما عاد ڤيكتور يحمل كأساً طويلة من شراب الليمون لأجلها، وكوكاكولا لنفسه، قال: «لا أظنك تعلمين أنه يوجد بحيرة سباحة هنا أسفل، أليس كذلك؟»

فرددت بدهشة: بحيرة سباحة؟

ـ نعم، لقد جعل دومينيك بحيرته الداخلية في الطابق السفلي بشكل كهف مجوّف. وهو يقيم أحياناً حفلات فيه. ثمة نباتات تتدلى منه، وهو شيء رائع، صدقيني.

قالت وهي تنظر إلى شرابها: «آه، أنا أصدقك».

ـ نعم، ولكنه الليلة في أحسن حالاته، فبعض ضيوفه من ذوي الأهمية البالغة.

وراح يذكر أسماء المشاهير الموجودين في الحفلة.

سألت مستغربة: «هل.. هل يعرف دومينيك كل أولئك الناس؟»

ـ طبعاً، فالمرء لا يصل إلى مركزه دون أن يعرف كل شخص ذي أهمية أو نفع له.

فتنهدت قائلة بجفاء: «لقد كان محظوظاً جداً. ألم تقل بنفسك إنكما من أسرتين.. فقيرتين».

ـ نعم، هذا مؤكد.. أراك فضولية جداً بالنسبة إلى خلفية دومينيك. لماذا؟

احمر وجه ديبرا وقالت: «لا أدري لماذا تتصور ذلك، فما هذا إلا حديث عادي».

قال ضاحكاً: «لا ضرورة للاستياء، وعلى كل حال، فأنت لا تختلفين عن ملايين النساء اللاتي أعرفهن؟»

ـ إذا كنت تعني أنني أتعبد عند محرابه، فأنت مخطىء جداً.

قالت ذلك بغضب ولكن سرعان ما انطفأ غضبها عندما وقع عليهما ظل. . فرفعت بصرها لترى وجه دومينيك.

لم يكن دومينيك وحده، فقد كانت معه فتاة شابة لا تكبر ديبرا سناً، صغيرة الحجم ذات شعر أحمر ذهبي مقصوص ومجعد، وترتدي ثوباً أحمر. كانت متعلقة بذراع دومينيك مرغمة إياه على الانتباه إليها طوال الوقت. شعرت ديبرا بالغثيان، ورفضت النظر إليهما. فأحنت رأسها بعد النظرة المدمرة تلك إلى ملامح دومينيك.

نهض ڤيكتور واقفاً وهو يقول: «مرحباً يا تيريزا».

فردت بصوت صبياني ولغة مهشمة: «مرحباً، ڤيكي. . لم أرك منذ وقت طويل».

ضغطت ديبرا شفتيها، وتمنت لو أنها بعيدة عن هذا المكان. . . وضعت كأسها من يدها، ثم تناولت حقيبة يدها تريد إخراج سيكارة، ولكنها قبل أن تفتحها كانت علبة دخان ذهبية تقدّم إليها، فرفعت بصرها مرغمة لترى دومينيك يشعل لها سيكارتها.

قالت له: «شكراً». ثم أشاحت بوجهها عن الثلاثة ومضت تنظر إلى قاعة الرقص دون أن تستمع إلى ما كانوا يقولونه. كانت تعلم أن هذه فظاظة وقلة أدب منها ولكنها لم تستطع أن تمنع نفسها من ذلك. فلماذا أتى إليها بهذا الشكل محضراً معه هذه المخلوقة الصبيانية؟

ثم تحدث دومينيك إليها. نظرت حولها فرأته وحده، وكان يسألها بأدب: «لقد أخذ ڤيكتور تيريزا إلى الرقص، هل تريدين الرقص؟»

ـ لا، شكراً.

ـ لماذا؟

فأجابت ببساطة: «لأنني لا أريد أن أرقص».

هتف بفروغ صبر: «كفى تصرفاً كالأغبياء. انظري، هناك أناس ينظرون إلينا بشيء من الاهتمام. . دعينا نرقص وننتهي بالله عليك».

أجابت ببرودة: «لم أطلب منك التحدث إليّ».

أمسك بمعصمها يوقفها على قدميها فجأة، فألمت أصابعه معصمها.

ـ ما هذا الذي تفعله؟

أجاب ببرودة: «أريد منك أن ترقصي معي. هل ستقاومين فتجعلي الناس يتفرجون علينا؟ إذا كان ذلك أحذرك من أنك ستبدين غاية في السخافة».

صرخت: «كيف تجرؤ؟»

لكنه تجاهلها وجرّها إلى باحة الرقص واضعاً ذراعه حولها.

كانت رقصة بطيئة الخطوات، فتملكها الاضطراب لأنه يشدّها إليه. كانت ذراعه اليمنى حولها ووجنته على شعرها.

تمتم في أذنها يقول:

ـ والآن، هذا ليس بالأمر السيء، أليس كذلك؟

هزت ديبرا رأسها بصمت وأصابعها على كتفه. . وأحست بأحاسيسها تستيقظ بشكل خطر. . . الموسيقى، الأنوار الخافتة، روائح العطور الغالية، وأكثر من كل شيء دفء دومينيك. . كل هذا كان يسبب الجنون لمشاعرها، وبحركة لا إرادية تقريباً، زادت من تطويق عنقه بذراعها، كان شعره كثاً ناعماً فأرادت أن تشعثه بعنف وتجعله يعانقها. ويبدو أنه شعر بخفقات قلبها، فتراجع إلى الخلف ومضى ينظر إليها بعينيه الزرقاوين العنيفتين.

تمتم يقول بصوت أجش: «ماذا تريدين أن تفعلي؟»

فسحبت يدها فجأة: لا أدري عما تتحدث.

ـ بل تعلمين يا صغيرة، لا أريد ألاعيب.

ـ أنا لست صغيرة.

ـ هل أنت واثقة؟

ـ طبعاً أنا واثقة، لا تحاول إرباكي بهذا الشكل. أنا آسفة لقلة أدبي معك في فندق لندن. كان ما قلته شيئاً لا يغتفر. وأنا. . أنا أريد أن أشكرك

لأنك كنت هناك.

وعندما نظر إليها اضطربت عيناها:

ـ لا.. لا تنظر إلي بهذا الشكل، أرجوك.

رقت نظراته فخفق قلبها، ثم قال: هيا بنا نتناول شيئاً نشربه.

أومأت إيجاباً، فجرّها من يدها خلال الجموع إلى نهاية حلبة الرقص، ولكن امرأة أمسكت بذراعه بيد مسيطرة.

ـ أين كنت يا دومينيك؟

كانت هذه مارشا ماتيوس التي بدت رائعة في ساري هندي مصنوع من قماش مخطط بجميع الألوان، فحاولت ديبرا الابتعاد، ولكنه بقي قابضاً على يدها بشدة وقال ببساطة:

ـ آه، مرحباً يا مارشا، هل تستمتعين بوقتك؟

ـ لا يا دومينيك. إلى أين أنت ذاهب؟

أجاب ببرودة: «لأتناول شراباً.. تعرفين ديبرا وارن، أليس كذلك؟»

نظرت مارشا إلى ديبرا متجهمة:

ـ نعم، طبعاً، إذن فأنت ابنة أليزابيت ستيل؟ شيء مهم حقاً.

احمر وجه ديبرا. عند ذلك اعتذر دومينيك من مارشا، ثم جرّ ديبرا خلفه خارجاً بها من قاعة الرقص، فركضت هذه لمجاراته في خطواته ولكنه تباطأ بعد فترة ودخلا من خلال باب فرنسي الطراز إلى غرفة طعام صغيرة ومنها إلى قاعة مستطيلة تمتد على مدى نظر ديبرا ثم تنعطف حول الزاوية، فأدركت أنها لا بد القاعة المركزية في المنزل. كان مكاناً فسيحاً للغاية، وتساءلت كيف يمكن لشخص واحد أن يعيش في مثل هذا المبنى الضخم.

أدخلها دومينيك إلى مكتبة صغيرة، ثم أغلق الباب واستند إليه وهو يتنهد بارتياح، وقال: «رباه، تصوري أنك لا تجدين سلاماً في بيتك».

ابتسمت ديبرا، ثم توجهت إلى كرسي غريب الشكل ولكنه غير مريح. أما دومينيك فوضع شريطاً موسيقياً في جهاز قائم في زاوية،

فتعالت بعد لحظات أنغام إيقاعية ملأت جوّ الغرفة.

قطبت جبينها مستفهمة، فقال: «إنه ديف برويك».

أومأت شاعرة بالاسترخاء.. كان المكان هنا ساراً تماماً. جدران المكتبة مبطنة بالكتب بينما قام على مكتب في ناحية آلة طباعة وعدة أجهزة تليفون.

سألته: «هل هنا مكان عملك؟»

ـ واحد من الأمكنة. فهنا أعمل عندما أريد أن أقوم بالطباعة بنفسي. عادة أنا أملي على ڤيكتور وهو يطبع.

فابتسمت: «آه، ڤيكتور. إنه ظريف أحبه».

ـ أحقاً؟ هل ترين معاشرته سهلة؟ أهذا هو السبب؟

فهزت كتفيها وهي تحني رأسها:

ـ أظن ذلك، أظنه من نوع الأشخاص الذين اعتدت معاشرتهم؛ أعني أنه يعمل ليعيش.

فهتف بصبر فارغ: «ألا تظنينني أنا أيضاً أعمل لأعيش؟»

ـ لا، ليس كما يفعل ڤيكتور؛ أعني، كما قلت لتوّك، ڤيكتور يقوم بكل الأمور العملية المتصلة بالكتابة، أما أنت فلديك الأفكار فقط.

قال بجفاء: «فقط، وماذا عنك الآن؟ هل ستحاولين التمثيل في «أڤينيرا»؟

هزت كتفيها بتوتر: هذا ما يريدني آرون أن أقوم به، ولكنني واثقة أنني سأفسد الدور.

قطب دومينيك جبينه: لا أدري لماذا تظنين ذلك. فتمثيل أليزابيت لم ينجح إلا بعد فترة. إن الدور يكبر معك وسترين.

ـ هل.. هل «أڤينيرا» أولى تمثيلياتك؟

قدم إليها سيكارة، ثم أجاب: «نعم، كانت على الأقل الأولى التي وجدتها مناسبة للإخراج، وذلك بعد محاولات كثيرة غير مرضية».

قالت برقة: «لقد كنت محظوظاً عندما قبلوا منك التمثيلية، أليس

ـ لا أستطيع أن أسمّي ذلك حظاً تماماً.

ـ ماذا تسمي ذلك إذن؟

ابتسم بشيء من السخرية:

ـ يا لك من فضولية يا ديبرا! ما الذي تريدين معرفته؟ التمثيلية؟ أم درجة معرفتي بأمك؟

قالت بحرارة: «حدثني آرون بالكثير عن أمي، ومن الطبيعي أن أهتم بالناس الذين يعرفونها».

فابتسم بشيء من الازدراء: أهكذا؟ حسناً، ما الذي تريدين معرفته؟

تملكها شعور فظيع فحاولت التظاهر بعدم الاكتراث:

ـ لا شيء بالذات، إنك.. عرفتها جيداً، أليس كذلك؟

ـ نعم.

ـ حسناً، كم استمرت معرفتك بها؟

ـ ست أو سبع سنوات.

ـ هل كانت.. جميلة جداً؟

ـ نعم.

ـ هل أنا أشبهها كثيراً حقاً؟

هز كتفيه: تشبيهينها في الشكل لدرجة مذهلة، ولكن ليس تماماً بالنسبة للأمور الأخرى. أظن أن نوع حياتها كان مختلفاً عن نوع حياتك. ثم هناك قدومها إلى أميركا ومزاولتها التمثيل.. كانت أكثر منك.. كيف أستطيع التعبير..

ـ تعني أصلب.

ـ نعم، أظن هذه الكلمة هي الصحيحة، إذ كانت تعرف كل شيء عن الحياة والأمور التي تتعلق بها..

فقالت بجرأة: «الرجال».

ـ حسناً، الرجال. ولكنها بقيت رومانسية في أعماقها، وبقيت تتألم لسوء الحظ.

ـ لسوء الحظ؟

ـ نعم، تباً ديبرا. ماذا تريدينني أن أقول؟ المرأة ميتة.

ـ إنك لم توضح كلامك تماماً، أليس كذلك؟ أعني أنك دوماً تتصرف وكأنني طفلة صغيرة يجب أن لا تعلم أن بابا نويل محض خيال.

نظر إليها بعينين نفاذتين باردتين:

ـ وأنت تتصرفين وكأن هناك شيئاً فظيعاً أخفيه وأخاف الكشف عنه.

وقفت ديبرا وهتفت: «آه، الأمر دوماً هكذا. لماذا عليك أن تتحدث إلي بهذه الوحشية؟»

هز رأسه ببطء وهو يتقدم نحوها:

ـ ربما لأنك تجعلينني أشعر بالتوحش، فأنت غاية في البراءة من بعض النواحي، ومع ذلك تحاولين أن تفهمي بعض الأمور التي.. آه، يا إلهي!

تنهد وهو يتخلل شعره بأصابعه.. أصبح قريباً منها مرة أخرى، وتملكها ذلك الشعور الفظيع بعدم التوازن.

قالت بمرح تحاول إخفاء الإثارة التي أشعلها فيها:

ـ إنني أعرف.. عن النحل والعصافير.

وقف أمامها ينظر إليها: «أحقاً؟ هذا ممتع».

لكنها لم تره مستمتعاً وإنما ضجر.

ثم مد يده ينزع دبابيس شعرها، فتهدل على وجهها محيطاً به كنقاب حريري أسود. رفع قبضة من شعرها يلامسه بأصابعه. عندئذ ارتجفت ديبرا ورفعت بصرها إليه. وجذبها من شعرها بشدة إليه يعانقها فيدمر كل تخيلاتها عما هو العناق.. كان ثمة رقة في لمسته فقد أمسك بها وكأنه لم يستطع مقاومة نفسه، أما هي فشعرت وكأن عناقه سحب القوة من جسدها.. التفت ذراعاها حوله، وشعرت ديبرا بجسدها يحترق، وفجأة إذا بنقر على الباب الذي انفتح بعد لحظة وخطا آرون إلى الداخل.

ـ مرحى يا دومينيك، لقد رأيتك...

ثم سكت فجأة وعيناه على ديبرا: آه، أنا آسف.

ترك دومينيك ديبرا ببطء واستياء، فوضعت هي يداً متوترة على شعرها محاولة تسوية نظامه، بينما أخذ دومينيك يزرر سترته ويرمق آرون بشيء من الجفاء وهو يقول:

ـ لا تخف يا آرون، فلم يحدث أي ضرر من أية ناحية.

ونظر إلى ديبرا.

نظرت ديبرا إلى آرون وما بدا على وجهه من ارتباك صادق، ثم سارت إليه تحتضنه بذراعيها قائلة: «هل كنت تبحث عني؟»

هز آرون رأسه محاولاً استعادة جأشه:

ـ لا، في الحقيقة، ظننتك مع ڤيكتور.

ثم نظر إلى ديبرا بطريقة غريبة:

ـ كنت أبحث عنك يا دومينيك، فكما سبق أن قلت أنت، بالنسبة إلى اللقطات المأخوذة في أميركا الجنوبية. لم أظن قط...

وتلاشى صوته.

قال دومينيك: «انس ذلك» وشعرت ديبرا بوجهها يتوهج لكلماته، فهي أيضاً كانت تستعيد شتات نفسها من مفاجأة دخول آرون، وأثناء ذلك تذكرت كيف سمحت لنفسها بالتصرف بذلك الشكل المشين. ما الذي سيظنه دومينيك بها الآن وأي لهجة ازدراء ستشوب حديثه عنها؟ أتراه يظنها كغيرها من النساء المتهافتات عليه؟ هل الأمر بمثل هذه السهولة بالنسبة إليه؟ سحبت ذراعها من ذراع آرون وهي تشعر بالغثيان وتلهفت إلى الخروج، فها هي تدرك في هذه اللحظات الأخيرة أن ما كانت تخاف منه قد حدث، فقد كانت تحبه. تحب ذلك الرجل الذي لا يهتم بها أكثر مما يهتم بأولئك النساء المتسكعات حوله. أتراها ستصبح واحدة منهن؟ متلهفة لكلمة منه وإلى استجلاب انتباهه؟ لا.

وأخيراً قالت برقة بالغة، وهي تمسك بقبضة الباب:

ـ أظنني.. سأذهب وأفتش عن ڤيكتور.

نظر دومينيك إليها: «هذا ليس ضرورياً، فما سأقوله لآرون لن يستغرق وقتاً طويلاً».

وبدا تعبير غامض في وجهه.

فقالت بصوت مرتجف: «ربما.. ولكنني سأذهب على كل حال».

ثم خرجت هاربة مغلقة الباب خلفها قبل أن يستطيع قول شيء آخر.

***

ابتعدت ديبرا عن طريق دومينيك إلى أن حان وقت ذهابها إلى البيت، ولم يكن من الصعب اختباؤها بين جموع المدعوين، كما أن دومينيك لم يبحث عنها.

وجدها آرون في الحادية عشرة والنصف، فقال لها: «يبدو عليك الشحوب يا حبيبتي، هل أنت بخير؟»

هزت رأسها: «لدي صداع. أيمكننا الذهاب إلى بيتنا؟»

فقال باسماً: «بيتنا؟ أحب أن أسمعك تقولين عن منزلي إنه بيتك. يمكننا الذهاب بالتأكيد. أين دومينيك؟»

هزت كتفيها: «لم... لم أره. هل علينا أن نودعه، أم يكفي أن نتصل به تليفونياً فيما بعد؟»

نظر إليها آرون بإمعان: «لا بأس، فلنذهب».

تنهدت ديبرا وهي تجلس في الليموزين، هكذا آرون دوماً.. رقيق متفهم. إنه لا يلقي الكثير من الأسئلة غير الضرورية.

وعلى كل حال، عندما أصبحا في البيت بدا شيء من الفضول على آرون، ثم قال: «أتريدين أن تتحدثي عن الأمر؟»

أشعلت سيكارة بأصابع مرتجفة: إذا شئت.

قال وهو يتمطى متكاسلاً على أريكة:

ـ بل إذا أنت شئت.

ـ ماذا هناك لأقوله؟ أظنني تصرفت بحماقة... أظنه يعتبرني غزوة

أخرى.

ـ من؟ دومينيك؟ أشك في هذا. إنه ليس بذلك الشكل.

هتفت بارتياب: «لا تتوقع مني أن أصدق ذلك».

ـ لماذا لا؟

ـ لأن النساء يتهافتن عليه.

ـ وماذا في ذلك؟ ما تفعله النساء ليس ذنبه.

ـ أعلم هذا، ولكن... حسناً، هناك المدعوة مارشا ماتيوس مثلاً، وفتاة أخرى تدعى تيريزا، وهما تعرفانه جيداً. أخبرتني بنفسك أنه ليس راهباً.

ـ أعلم أنه ليس كذلك، ولكن لا تظني أنه يدور ليقيم علاقة مع كل امرأة يقابلها، لأن هذا غير صحيح.. لقد عرف نساءً كثيرات، ولكنني لا أظن نساء كثيرات عرفنه.

تنهدت مرة أخرى: «ما الذي تحاول أن تقوله لي؟»

ـ حسناً، لا أريد منك أن تظني دومينيك وغداً، ولكنني أيضاً لا أريد أن تظني نفسك مغرمة به.

التهبت وجنتا ديبرا وأشاحت بوجهها: سيكون هذا مضحكاً.

عاد يتأملها مفكراً: «نعم، سيبدو كذلك. اسمعي يا ديبرا، لقد أحضرتك إلى هنا لتمتعي نفسك وليس لتتعلقي برجل عرف النساء منذ كنت أنت طفلة تلهو بدماها، والأنكى من ذلك أنك ستعملين معه بعد أسابيع قليلة، وعليك أن تتقبليه كما وجدته».

ارتدت إليه: «أعمل معه؟ ولكن.. أعني.. كيف؟»

ـ ذلك الدور، دور لورا في «أڤينيرا»... لا أراك نسيت، أليس كذلك؟

بدا عليه القلق واللهفة، فشعرت بالندم، فقالت شبه باسمة: «لا، لا، لم أنس طبعاً. أظن أنه إذا كان قادراً على العمل معي، فسأعمل معه».

فتمتم قائلاً: «وما حدث الليلة يا حبيبتي، لا تسمحي له بالحدوث مرة أخرى».

ـ لن أفعل.. ولكن لماذا؟

سار نحوها وأمسك بكتفيها بحزم:

ـ دومينيك رجل ممتاز، وأنا أفعل أي شيء لأجله، وهو يعلم هذا، ولكنه... كيف أشرح لك؟ إنه ليس من نوع الرجال الذين يكتفون بمجرد عناق.

أحنت ديبرا رأسها بارتباك، فعاد آرون يقول: «حبيبتي ديبرا، فكري في الأمر ولو لإرضائي».

فتنهدت: «آه يا آرون... سأفعل».

***

مضت عدة أيام لم تر ديبرا دومينيك أثناءها، رغم قدومه إلى منزل آرون وهي فيه. لقد تجنبته متعمدة، فمكثت في غرفتها حتى خروجه، واحمر وجهها عندما قال لها آرون برقة:

ـ لا يمكنك أن تتصرفي وكأنه ارتكب ضدك جرماً يا حبيبتي، إنه لم يأت على ذكرك هذه المرة، ولكنه علم بأنك موجودة.

ـ كيف؟

ـ عندما جاءت إستيل الخادمة بالقهوة وسألت إن كنت تريدين قهوة أنت أيضاً.

ـ يا إلهي! وماذا قال؟

ـ لا شيء، فدومينيك ليس أحمق. إنه يعلم جيداً سبب تجنبك له، ولكنني لا أعلم بالضبط لماذا تفعلين ذلك، أراك تعقدين الأمور بالنسبة إليك.. عليك أن تواجهيه عاجلاً أم آجلاً وليس عليك أن تخافي من أن يفرض عليك الاستجابة له، فهو لم يجد ذلك ضرورياً قط من قبل.

ـ أعلم هذا. ولكن ماذا أقول له عندما أراه؟ أعني لا يمكن أن أعامله كما كنت أعامله من قبل.

ـ ولماذا لا؟

فحدقت إليه: «لم أظن قطّ أنك ستقول هذا».

سألها بشيء من الملل: «لماذا؟ ظننتك ستتفهمين الأمر».

وتقدم يحتضنها برفق: «لا بأس، فأنا أفهم. ولكن تذكري أن دومينيك صديقي. إنني أعلم أن اللوم ليس عليك في ما حدث بينكما، ولكنه أيضاً غير ملوم على العموم فأنت فتاة جذابة جداً يا حبيبتي ومن الطبيعي أن تحدث أمور كهذه لك».

- أعلم هذا.

- حسناً، دعينا ننسى الأمر إذن، ومن الآن فصاعداً، عندما يأتي دومينيك إلى هنا تصرفي معه بشكل طبيعي.

- لا بأس، سأحاول.

- فتاة طيبة.

وابتسم لها فردت عليه بابتسامة باهتة. ولكنها فيما بعد أخذت تتساءل كيف يمكنها أن تتصرف معه وكأن لا شيء حدث؟ وبعد، فما حدث هو بالنسبة إليها بالغ الهول. فقد وقعت في غرامه، فما هذا الجنون؟ وتملكها الغضب، كيف تقع في غرام رجل ليس لديه نية في الزواج؟ وإذا قرر الزواج فسيختار فتاة من قمة المجتمع الذي يتناسب مع بيوت سانتا مونيكا، حيث منزله والسيارات السريعة والطيارات الخاصة والمجموعات الفضية والتحف التي لا تقدّر بثمن.

وجدت فرصتها لتعرف إلى أي حد يمكنها السيطرة على نفسها.. وجدتها بعد أيام حين عاد آرون إلى البيت يحمل لها دعوة لحضور حفلة على الشاطىء في منزل دومينيك.

هتفت ذاهلة: «حفلة شاطىء؟ ولكن لماذا يدعوني؟»

أجاب متنهداً: «اسمعي، ڤيكتور يرتب كل هذه الأمور، ومن الطبيعي أن يكون اسمك على القائمة. عليك أن تذهبي إلا إذا كنت تريدين أن تثيري الأقاويل والتخمينات في الصحف وبين الأصدقاء».

- فهمت، هذا مخيف.. أليس كذلك؟ أعني أن لا يستطيع الإنسان أن يفعل ما يريد بسبب الآخرين.

توقفت هنيهة ثم أردفت: «هل ستكون هناك؟»

- لا.. أخبرتك مرة بأنني كبير على مثل هذه الأشياء.

- نعم، حسناً، سيكون هناك ڤيكتور على الأقل.

- نعم، سيكون، وسأطلب منه الحضور لأخذك.

- هذا حسن لأن وجودي معه يشعرني بالراحة.

- اتفقنا إذن، إنما حذار من التورط في الأوضاع الشاذة إذ لن أكون هناك لأخرجك منها.

في سريرها أخذت تفكر في ما إذا كان من الضروري أخذ ثوب السباحة معها إلى تلك الحفلة.. كان لديها «بيكيني» لم تلبسه قط، إذ أن آرون أصر على أنها تحتاجه. وبما أنها لم تخبر آرون أنها لا تحسن السباحة لم يعلم لماذا لم تستعمل بركة السباحة.. كانت تستلقي بجانبها في ثوب البحر وهذا كل شيء. هي تشعر بالخجل من جهلها السباحة ولهذا استصعبت الاعتراف بذلك. وتنهدت، حسناً، إذا كان في الحفلة القادمة أناس كثيرون كالحفلة السابقة، فلن يلاحظ أحد جهلها.

عندما ذكرت موضوع الملابس أمام آرون، نظر إليها ذاهلاً: «سترتدين بذلة السباحة طبعاً، ويمكنك أن ترتدي ثوب الشاطىء أو معطفاً فوقه. إن هذا كل ما يرتديه أي شخص في حفلة كهذه».

ابتلعت ريقها بصعوبة: «فهمت، لا بأس».

عندما ارتدت البيكيني مساء الحفلة، وكان مصنوعاً من نيلون مطاط بلون مشمشي بديع، بقيت لحظة تتأمل نفسها أمام المرآة. وارتجفت قليلاً وهي تتصور بذعر لقاءها بدومينيك. ولكنها نهرت نفسها فعليها أن تنبذه من ذهنها إذ يجب أن لا تذهب إلى هذه الحفلة وهي تفكر فيه.. يجب أن تتصرف ببرودة وانعزال تامين.

عندما وصلت برفقة ڤيكتور إلى منزل دومينيك كان الوقت ظلاماً تقريباً... أثناء صعودهما طريق المنزل كانت أنغام الموسيقى تصل إلى آذانهما من الشاطىء، وكان فيض الأضواء يبدد الظلام، أما روائح الشواء

فتصاعدت من المشاوي.

شعرت بشيء من الراحة لأن من الواضح أن ثمة كثير من الناس، وبالتالي ليس لدى دومينيك وقت للاهتمام بفتاة تخاف منه.

نزلا إلى الشاطئ وخلعت ديبرا حذاءها وسارت حافية على الرمال الناعمة. كانت النسيمات تحرك سطح المياه مرطبة الجوّ الدافئ والناس في كل مكان.

كان الطعام وافراً، متنوعاً ما بين اللحوم والدجاج المشوي والهمبورغر والبصل.

رأت ديبرا كثيرين من المدعوين لا يرتدون سوى بذلات السباحة، فحرارة الجو لم تكن تسمح بأكثر من ذلك، ولكنها تمسكت بقفطانها، وعندما حاول ڤيكتور أن يساعدها على خلعه، اعتذرت متذرعة بالبرد.

انضم إليهما زوجان قدمهما ڤيكتور إليها باسم أليزا وبن شاوكروس حيث أخذوا جميعاً يشربون العصير ويدخنون ويمزحون وهم يتفرجون على الرقص.. كانت أليزا ترتدي بذلة سباحة من قطعة واحدة، بينما يرتدي بن «شورت» مخططاً.. أخبرها ڤيكتور أن بن يعمل تقنياً في الإستديو. أحبتهما ديبرا ومرّ بهم الوقت دون أن يشعروا به. وبعد فترة أخذا يرقصان، فسألها ڤيكتور ضاحكاً:

ـ ألن تنزعي عنك هذا القفطان؟ تتصرفين وكأن ارتداء ثوب السباحة شيء تخجلين منه.. آه! إننا في حفلة محترمة فدومينيك لا يقيم حفلات ماجنة.

ضحكت ديبرا قليلاً: «آسفة، كل ما في الأمر هو أنني لم ألبس «بيكيني» من قبل، وقد مضت سنوات منذ ارتديت ثوب سباحة عادياً».

قال مدهوشاً: «أحقاً؟ سنركب الحسكات فيما بعد، فهل ستجربين ذلك؟»

تحيرت ديبرا وما زالت لا تجرؤ على الاعتراف بأنها لا تجيد السباحة:

ـ لا أدري، هل ستفعل أنت؟

وأدارت نظراتها إلى الأمواج المزبدة على الشاطىء.

ـ بكل تأكيد.. جميعنا سنقوم بذلك، ولكن إذا كنت تخافين فابقي في المياه الضحلة غير العميقة، وقد يكون ذلك خطراً.

فقالت مفكرة: «نعم، لا بأس. أظن دومينيك بطل العالم في ذلك» ونطقت بالجملة الأخيرة ساخرة.

انفجر ڤيكتور ضاحكاً وهو يمس أنفها عابثاً: لا بد أنك تمزحين.

فعبست، وكان الرقص انتهى فعادا إلى الآخرين. سأل بن:

ـ أين دومينيك؟ لم أره بعد.

أجاب ڤيكتور: «ولا نحن. لا بد أنه في مكان ما قريب.. رأيت ليندس هاريغان منذ فترة لهذا أظنه معه، فهاريغان مهتم بتمثيلية دومينيك الجديدة ويريد أن يخرجها لأجل «مسرح شركة نيويورك».

أومأ بن برأسه بينما ابتسمت أليزا لديبرا وسألتها بمودة: «هل أعجبتك الحياة في لوس أنجلس؟»

أجابت ديبرا ببساطة:

ـ أنا.. حسناً، أحببتها كثيراً، أهلها ودودون لطفاء، كما أن الجو رائع.

فابتسمت أليزا مسرورة: «نعم.. إنها جميلة. لقد عشت هنا طوال حياتي ولا أحب أن أغيرها. هل أنت منسجمة مع آرون؟ إنه رجل طيب».

أجابت ديبرا بحماسة: «آه، نعم! أحبه كثيراً، فهو بالغ الرقة والكرم واللطف كما أنه متفهم للغاية».

كاد قلبها يقفز من مكانه عندما أحاطت ذراع بكتفيها وسمعت دومينيك يقول في أذنها برقة:

ـ أمن الممكن أن يكون هذا الحديث عني؟ إذا كان هذا صحيحاً فهو تحسن عن آخر مرة.

ألقت ديبرا على وجهه الضاحك نظرة جانبية وكفّ قلبها عن

الخفقان. . كانت عيناه هازلتين دافئتين ولا يبدو فيهما أية خيبة أمل، وبدت أليزا مدهوشة قليلاً للألفة التي بدت في نظرات دومينيك إلى ديبرا، وقالت: «مرحباً، دومينيك. إنك هنا إذن».

ـ مرحباً، إليزا.

وضحك لها وقد بدا عليه الراحة كما لم تره ديبرا منذ فترة طويلة، ولكنه لم يتركها بل بقي واقفاً يتحدث إلى الآخرين وذراعه حول كتفيها تشيعان الاضطراب في نفسها.

كان يرتدي قميصاً كحلياً مفتوح العنق وشورت كحلياً، وكان يتحدث إلى بن وأليزا كما يتحدث إلى أي شخص آخر. . ببساطة طبيعية دون إحساس بأهميته، وهذه إحدى أكثر مزاياه جاذبية. فهو لا يتحدث إلى أحد باستعلاء على الإطلاق، وعندما كان أي من بن أو ڤيكتور أو أليزا يتحدث إليه، كان يصغي باهتمام إلى ما يقوله دون مقاطعة. ثم نظر إلى ديبرا، وفجأة شعرت بأنها وحدها معه وذلك بين كل هؤلاء الناس.

ثم قال لها: «هيا بنا، أريد أن أتكلم معك على انفراد».

شعرت بنفسها كالمنوّمة مغناطيسياً وهي تهز رأسها قائلة: «لا».

ـ نعم.

قال ذلك دون تأثر وأصابعه تشتد على كتفيها وهذا ما آلمها فجأة. وابتسم للآخرين متجاهلاً نظراتهم المتأملة، وعندما أرغمها على السير على الرمال، تململت غاضبة، فقال:

ـ بالله عليك، يا ديبرا! ما الذي تخافينه مني؟ إنني حتى لن ألمسك إذا كنت تكرهين ذلك.

وترك كتفها، فارتجفت: «لماذا تريد التحدث إليّ؟»

ـ تعلمين لماذا. أظنني أريد الاعتذار.

ـ هذا ليس ضرورياً.

ـ أعلم هذا، ومع ذلك أريد الاعتذار. هل هذا هو سبب تجنبك لي؟

هزت كتفيها: «ربما».

ـ تعنين نعم، حسناً، والآن بعد أن اعتذرت لا تواجهيني بالبرودة مرة أخرى.

شعرت ديبرا بغضب بالغ، فهو لا يبدو واعياً إلى تحطيمه لمشاعرها، أو ربما هو يعلم. وربما يسليه قليلاً أن يرى ردة فعلها.

هتفت بحرارة: يا ليتك تتركني وشأني، كنت سعيدة تماماً مع ڤيكتور وأصدقائه. ولا أدري لماذا دعوتني إلى هذه الحفلة. كل هذا لا يهمني. . .

ومدّت يديها تشير إلى ما حولها.

ـ لماذا أنت. . .

وكبح اللقب الغاضب الذي أراد أن يصفها به، ثم تنفس بعمق يسيطر على أعصابه:

ـ لا بأس يا ديبرا. . . تصرفي كما تريدين.

ثم أدار لها ظهره ومضى تاركاً إياها لشأنها.

ما إن رأت نفسها وحدها حتى شعرت بالندم لتصرفها الصبياني هذا وفظاظتها، ولكنها ما لم تغير من الوضع فسينتهي الأمر بكارثة، وهكذا ليس أمامها طريق آخر، فقد كان تجاذبهما الجسدي حقيقة واقعة، ودومينيك رجل اعتاد الحصول على المرأة التي يريد. . ولكنها أخذت تحدث نفسها بيأس أن هذا لا ينطبق عليها، وهي لن تدع ذلك يحدث.

عادت إلى ڤيكتور الذي كان الآن يترأس مجموعة من الشبان. كان يدور جدل كثير بينهم ومزاح حول مهارة السابحين ومقدرتهم، وحاولت ديبرا أن تبدو جزءاً من هذه المجموعة، وأخيراً اتجهوا جميعاً إلى المياه، وكان أن أُرغمت ديبرا على خلع قفطانها في النهاية. شعرت بالراحة وهي ترى أن لا أحد اهتم بها خلافاً للمعتاد. وسمحت لنفسها بأن تندفع إلى الماء بقدر ما تستطيع من السيطرة على نفسها.

كان ڤيكتور بجانبها، فقال:

ـ هيا، سأتسابق معك مسافة مئة ياردة ذهاباً ومثلها إياباً.

كانت ديبرا على وشك الاعتراف له بأنها لا تجيد السباحة عندما جاء بن ومعه حسكة.

قال بن ضاحكاً لديبرا:

ـ ثمة وقت كثير للمراهنة فيما بعد يا ڤيكتور. لا بأس.. إنها دمية جميلة حقاً، ولكن هذه حفلة وليست مكاناً لانفراد شخصين.

ضحك ڤيكتور: «إنك رجل غيور، ولكن لا بأس. هيا بنا يا ديبرا نحضر قارباً».

تركته يقودها إلى الشاطئ وهي تتساءل عما إذا كان بالإمكان ركوب قارب الحسكة دون إجادة السباحة، وفكرت أنها إذا هي استلقت على الحسكة على ظهرها كما رأت بعض الفتيات يفعلن، فستتأرجح بها الحسكة، تاركة المد والجزر يتناوبانها أخذاً ورداً، ولا شك أنها ستكون آمنة بما يكفي.. كانت تعلم أنها فكرة جنونية، ولكن أيّ شيء كان أفضل من أن تخبر جموع الناس هذه بأنها لا تجيد السباحة.

سحبت زورقها إلى الماء، واستلقت عليه كما رأت الفتيات الأخريات يفعلن، وسرعان ما غاصت تحت الأمواج عند المنطقة الضحلة، ثم صعدت وهي تشهق وإذا بها ترى ڤيكتور وقد شق طريقه في المياه عدة ياردات أمامها، ومن الواضح أنه ظنها تتبعه، فارتجفت قبل أن تجرب مرة أخرى ارتقاء قاربها الحسكة، ومرة أخرى انقلبت في الماء.. ثم انتبهت إلى أن شخصاً يقف على الشاطئ يراقبها بنظرات ساخرة تنطق بالتسلية.

سألها دومينيك متكاسلاً: «ما الأمر؟ يبدو أنك تجدين بعض الصعوبة، أم لعلها طريقة جديدة في السباحة؟»

ثم ضحك بازدراء.

أدارت له ظهرها وأخذت تحاول مرة أخرى، ومرة أخرى سقطت في الماء وابتلعت هذه المرة عدة جرعات منه، وشعرت وكأنها لا تستطيع التنفس، فتركت الحسكة وصعدت إلى الرمال الجافة شاعرة بالغثيان.

تقدم دومينيك منها يربت على ظهرها جاعلاً إياها تزيد من السعال، وأخيراً شعرت بالانفراج في صدرها فرفعت إليه عينين دامعتين وقالت باستياء: «شكراً».

ـ لا بأس.

وهز كتفيه بهم بالابتعاد، عندما قالت: «ألا تسبح؟»

قال ببرودة: «أسبح في بركة السباحة، ولا أركب حسكة أبداً».

ـ لماذا؟

ـ هذا شأني، كما تحبين القول دوماً.

تنهدت ديبرا ونفضت شعرها، بينما ابتعد دومينيك نحو مجموعة من الناس ما زالت جالسة حول المشاوي، فوقفت ديبرا شاعرة بتعاسة ووحدة بالغة. ثم تنهدت مرة أخرى وسارت مبتعدة على الشاطىء في الاتجاه المضاد، بعيداً عن الأضواء والموسيقى، إلى حيث كثبان الرمال المهجورة المضاءة بضوء القمر.

وجدت رابية معشوشبة جلست عليها، وراحت تنظر إلى الخلف حيث كانت جماعة قادمة على حسكة بمحاذاة الشاطىء، وتساءلت أين يكون ڤيكتور وعما إذا افتقدها.

تساءلت عما يمنع دومينيك من ركوب الحسكة، فهذا شيء غير عادي، إذ يبدو أنه يحب معظم الرياضات الأخرى. تساءلت عن رأيه فيها، ربما يعتبرها تلميذة مدرسة ناضجة، ومع ذلك يجدها جذابة.. فكرت في أنه قد يكون غاضباً من نفسه لهذا الشعور، وعادت إلى مشكلة أمها، وهي تتساءل مرة أخرى عن علاقتها بدومينيك.

تحوّلت الموسيقى الآن إلى أغنية حب فشعرت ديبرا بقلبها يتقلص ألماً. هل سيكون الأمر دوماً بهذا الشكل؟ هل عليها أن تعيش دوماً مع هذا الألم الفظيع في داخلها كلما ذكر أحد اسمه، وكلما رأته سائراً أو متحدثاً إلى آرون، أو لمجرد مروره بسيارته «الفيراري»؟

أخذت تنظر إلى المحيط الباسيفيكي الممتد أمامها. كان المشهد

يوحي بالسلام والهدوء حيث البدر يضيء السماء. بدت السماء مرصّعة بالنجوم والأفق مزيجاً من اللونين الأزرق والفيروزي.

فجأة رأت شيئاً قاتم اللون تكتسحه دون رحمة موجة عاتية وهي تتكسر على الشاطئ.. وقفت مظللة عينيها تحاول أن تميز ما عسى أن يكون.. لم يكن صغير الحجم، بل بدا في الواقع بحجم جثة.

لم تقف لتفكر بل هبطت بسرعة الرابية المعشوشبة إلى حيث كانت الأمواج تكتسح الرمال، وعندما اقتربت وجدت أن ذلك الشيء كان جسداً.. جسد فتاة، فأسرعت إليها وهي ترتجف قبل أن تقف لتفكر في الأمر.

جاءت الأمواج هادرة نحوها، وإذا بشعر الفتاة ينتشر كطحالب بحرية في الظلام. ارتجفت ديبرا بالرغم منها، فسحب جسد من البحر هو شيء يثير الرعب. منذ متى هذا الجسد هنا؟ وهل هو ميت؟

كادت المياه تصل إلى صدرها وعندما قذفت الأمواج جسد الفتاة عليها تغلبت على خوفها وتشبثت به بعنف حتى كادت تفقد توازنها، وهذا ما جعلها تطلق صرخة حادة. ثم استطاعت، وهي تلهث، أن تسحب الجسد خلفها الذي كان أثقل من أن تستطيع رفعه من الماء، فأخذت تشق طريقها خلال الأمواج مترنحة عائدة إلى المنطقة الضحلة، ثم سحبت الجسم أخيراً إلى حيث الرمال الجافة على الشاطىء وركعت بجانبه وهي ترتجف ثم مدت يدها تتلمس مكان القلب.

شعرت بالراحة وهي ترى ملامح الفتاة غير مشوّهة وهذا يعني أنها لم تمض في الماء مدة طويلة. شعرت بخفقات قلب ضئيلة للغاية، ولكن ديبرا رأت أن الفتاة ستموت إذا لم يجر لها إنعاش على الفور.. نظرت حولها بلهفة. ما الذي تعرفه عن إنقاذ الحياة؟ لا شيء.

أدارت الفتاة بسرعة وبطحتها على بطنها جاذبة ذراعيها إلى خلفها، ثم ضغطت بشدة على الحجاب الحاجز، فتدفق الماء من فم الفتاة وأخذت ديبرا تكرر الحركة، وهي تغمض عينيها تدعو الله أن يكون ألهمها الصواب

في ما تقوم به.

ثم سمعت أصواتاً، ثم وقع أقدام على الرمال، وإذا بشاب يرفعها لتقف على قدميها وهو يقول: «سمعنا صوتك. هيا، سآخذ مكانك، إذ يبدو عليك الإنهاك».

وسرعان ما امتلأ المكان بعشرات من الناس، البعض أُرسلوا ركضاً لطلب العون، بينما أحضر آخرون دُثُراً لتغطية الفتاة التي ظهر أنها من المدعوين إلى الحفلة، فقد وجدوا قاربها الحسكة منقلباً على الشاطىء، فأخذوا في التفتيش عنها منذ ذلك الحين.

تراجعت ديبرا إلى الخلف وهي ترتجف، متمنية لو تشرب شيئاً يدفئ عظامها. لقد كانت صدمة عثورها على الجسد قد سلبتها كل قوة، وجعلتها تشعر بضعف بالغ. تهالكت على الرمال، بعيداً عن المنقذين، ثم أراحت رأسها على ركبتيها متعبة.

ثم سمعت صوت دومينيك.. رفعت بصرها فرأته يشق طريقه خلال الحشد المحيط بالفتاة التي بدأت الآن تستجيب للعلاج.. كان يبدو ذاهلاً وهو يدفع الآخرين جانباً دون اهتمام، ثم يركع بجانب الفتاة على الرمال يتأملها باهتمام. عادت ديبرا ترتجف مرة أخرى. أتراها إحدى النساء اللاتي اعتدن اللحاق به حيثما ذهب؟ وأحنت رأسها مرة أخرى وهي تغالب دموعاً حارة في عينيها.

وإذا بيدين قويتين تجذبانها فجأة بقوة لتقف. نفضت شعرها المبلل لتحدق في وجه دومينيك دون أن تفهم شيئاً.

تمتم بعنف وهو يمسك بوجهها بين راحتيه:

ـ أهذه أنت؟ آه، الحمد لله! هل أنت بخير؟ هل أنت من سحب أنابيل من الماء؟

أومأت ديبرا برأسها وهي ترتجف بشكل سيء للغاية.

تمتم يقول: «يا الله! إنك مثلجة. هيا، سآخذك إلى المنزل».

دون أن يمنحها فرصة للاحتجاج، حملها بين ذراعيه ثم سار على

الشاطىء بخطوات واسعة، فراحت الأعين تستدير نحوهما مستفهمة.

لم تهتم ديبرا بما عسى أن يظنّوه، فقد شعرت من الدفء والأمان بين ذراعي دومينيك بحيث لم تعد تهتم بما قد يقال عنها. لا بد أن الدرجات الشديدة الانحدار الصاعدة قد كلفت دومينيك غاية الجهد، ثم سار ببطء عابراً الأفنية إلى باحة المنزل، ودخل بها إلى ردهة فسيحة قابلهما فيها خادم نظر بقلق بالغ إليهما ثم قال:

ـ هل هي الشابة المصابة يا سيد دومينيك؟

أجاب باختصار: «لا.. هل رتبت أمر سيارة الإسعاف؟»

ـ نعم يا سيدي.

ـ حسناً، سأترك أمرها إليك إذن. أخبر جوزيف أن يحضر بعض المناشف وروب إلى مكتبي.

ـ نعم يا سيدي.

أوقف دومينيك ديبرا على قدميها في غرفة مكتبه المريحة، ثم أخذ يمرّن عضلات ظهره بتعب. أخذت ديبرا تنظر إليه فقد كانت المرة الأولى التي ترى وجهه متوتراً ذاهلاً بهذا الشكل.

سألته مترددة: «هل.. هل أنت بخير؟»

أومأ برأسه: «وأنت؟»

هزت ديبرا كتفيها: «طبعاً».

ثم جاء خادم آخر يحمل بين ذراعيه مناشف وروب حمام على كتفه.

ثم سأله وهو ينظر إلى ديبرا بفضول:

ـ هل طلبت هذه يا سيد دومينيك؟

ـ نعم، شكراً يا جوزيف.

أخذ منه الأشياء ثم انغلق الباب وبقيا وحدهما. وعلى الفور بدا عليها ردة فعل عصبية، ولكن دومينيك لم يفعل سوى أن ألقى إليها بمنشفتين كبيرتين وقال مشيراً إلى باب هناك: «هنالك الحمام، فادخلي وجففي نفسك ثم اخلعي بذلة السباحة المبتلة هذه وإلا أصبت ببرد.. ضعي هذا

الروب عليك ثم عودي واشربي شراباً ساخناً».

ترددت ديبرا لحظة، ثم سارت إلى الباب فدخلت ثم أغلقته خلفها مقفلة إياه بالمفتاح، وبعد ذلك بدقائق خرجت مرتدية الروب شاعرة بالدفء.

أما دومينيك فكان متمدداً على أريكة خضراء مخملية الغطاء، مغمض العينين. ثم انتبه إلى وجودها، فنهض متكئاً على مرفقه، وأشار إلى إبريق من الشاي موضوع على صينية.

ـ اسكبي فنجاناً من الشاي ليصلح تلافيف دماغك الأخلاقية.

لم تعلم ديبرا ما إذا كان يسخر منها أم لا، ولكنها فعلت ما اقترحه عليها، ووقفت تشرب السائل الساخن وتنظر إليه وهي تتساءل لماذا لم ينهض عند دخولها، فليس من عادة دومينيك إغفال لفتات التهذيب البسيطة.

عاد يستلقي على الأريكة لحظة وكأنها ليست موجودة، ثم نهض واقفاً على قدميه وإن بصعوبة، فأخذت تحدق فيه بقلق ثم سألته بحرارة: «هل بك شيء؟ ما هو؟»

أجاب باختصار: «لا شيء يهمك، والآن أخبريني، ما الذي ستفعلينه بي؟»

فقالت هازة رأسها: «لا أدري ماذا تعني».

تقدم نحوها ببطء، ونظر إليها وفي عينيه تعبير غريب، ثم رفع خصلة من شعرها لفها على أصابعه بشدة آلمتها:

ـ ألا تعلمين أنني ظننتك أنت الفتاة الغريقة؟ لقد اختفيت ولم يعلم أحد إلى أين ذهبت، وإذا بذلك الفتى يأتي راكضاً ليقول إن ثمة فتاة غريقة تقريباً. يا الله! ماذا يمكنني أن أفكر غير ذلك؟

أحنت ديبرا رأسها وتنهدت:

ـ أنا آسفة.. يبدو أن عليّ دوماً أن أعتذر إليك. هل ستصبح الفتاة بخير؟

ـ نعم، أظنك أنقذت حياتها فعلاً. لو لم تكوني في ذلك المكان بالذات لأعادها المدّ إلى البحر بكل سهولة، وعلى كل حال، لماذا كنت في ذلك المكان بعيدة عن الأنظار؟

ـ كنت جالسة فقط.

ـ وحدك؟

ـ كان هذا واضحاً.

ـ نعم، كان هذا واضحاً.

وأومأ برأسه، فأحكمت ديبرا لفّ الروب حولها وقد تملكها الخجل فجأة لقلة ملابسها، كما أن دومينيك كان من القرب منها بحيث لم تستطع الحركة بشكل طبيعي.. كان قلبها يخفق، وهذا ما جعلها تشعر بالحرارة.

قالت متلعثمة: «الأفضل.. الأفضل أن أذهب. سيتساءل ڤيكتور أين عسى أن أكون».

ـ وهل يهمك ما يظنه ڤيكتور؟

تصلب جسمها: «ليس بشكل خاص.. أينبغي ذلك؟»

تمتم يقول وقد بانت الرقة في عينيه: «حسب الظروف».

قالت وهي تتنفس بعنف وقد انتبهت إلى تصاعد التوتر بينهما:

ـ آه، يا دومينيك!.. لا تلمسني.

أبعد أصابعه عن شعرها: هل تنفرين مني إلى هذا الحد؟

أجابت بعد أن تأملته لحظة:

ـ إنك لست.. منفراً على الإطلاق. أرجوك، أطلب من ڤيكتور أن يعيدني إلى البيت.

ـ لا بأس، لا بأس، والآن، أخبريني بالحقيقة يا ديبرا.. أنت لا تستطيعين السباحة، أليس كذلك؟

احمر وجهها: «لماذا هذا السؤال؟»

بدا العنف في عينيه: «لأن عليّ أن أعلم أنني كنت على صواب، وأن هناك مبرّراً لقلقي عليك.. ليس لديك فكرة عن المجازفة التي تعرضت

لها وأنت تدخلين ذلك المحيط. يا لله! لو أن المياه جرفتك..».

ارتجفت: ولكن هذا لم يحدث.

ـ هذا صحيح، ولكن كان يمكن أن يحدث بكل سهولة. أتريدين أن تصبح مسؤولية موتك عبئاً عليّ؟

قالت وقد أوشكت على البكاء: «ما أفظع ما تقول، وأنا آسفة إذ سببت لك قلقاً دون ضرورة، وسأحاول في المستقبل أن أبقى بعيدة عن طريقك».

وتهدج صوتها.

فتأوه قائلاً: «ديبرا».

وجذبها نحوه يعانقها.. كان في عناقه من عنف المشاعر ما جعل كل أفكارها عن الهرب تتلاشى مؤقتاً، وبدلاً من ذلك لفت ذراعيها حول عنقه تبادله عناقه بكل الحرارة واللهفة اللتين يرغب فيهما..

عندما انتهى العناق انتبهت ديبرا إلى وضعها؛ الغرفة المنعزلة، الأريكة المريحة المغرية، وروب الحمام الذي يخصه..

وبصرخة مختنقة سحبت نفسها من بين ذراعيه ثم ركضت إلى الباب ففتحته وهربت إلى الردهة حيث أوشكت على الاصطدام بفتاة قادمة من الاتجاه المضاد، فاعتذرت بشكل آليّ، وإذا بها ترى ملامح مارشا ماتيوس الباردة التي أمسكت بذراعها وهي تنظر بعينين ضيقتين إلى شعر ديبرا المبتل وروب الحمام المشدود على جسمها.

ثم سألتها بعنف: «هل كنت مع دومينيك؟ أين هو؟»

أجابت ديبرا وهي تخلص ذراعها منها: «إنه.. في المكتب».

ـ هل أنت مغادرة؟

فالتهب وجه ديبرا: «نعم».

قالت مارشا بحقد: «هذا حسن.. أظنك فهمت أخيراً. ولكن ديبرا لم تجب فقد كانت في طريقها نحو الردهة على ساقين مرتجفتين».

* * *

٧ ـ . . في صميم القلب

في اليوم التالي تملك ديبرا الخوف من أن يأتي دومينيك إلى المنزل بشكل غير متوقع، فقد ساورها الشك في أن يدع الأمور تهدأ دون اهتمام منه . . كانت تعلم أنه انجذب إليها، ولكن الانجذاب الجسدي لم يدم.

أمضت النهار قلقة تجول في أنحاء المنزل، غير قادرة على الاستقرار على شيء. تمنت من كل قلبها لو أنها لم تعنفه ذلك المساء في فندق لندن، فمنذ ذلك الحين يعاملها بشكل مختلف، وكان الذنب في ذلك ذنبها . . لقد أرادت أن ينتبه إليها، لأنه جرحها عدم اهتمامه البادي بها ومعاملته العادية وكأنه عمها، وها هي ذي الآن تجد نفسها في موقف لا حلّ له.

نظرت إلى ساعتها . . فإذا هي تتجاوز الرابعة والنصف بقليل وسرعان ما يصل آرون. أشعلت سيكارة وخرجت إلى الشرفة حيث جعلها صوت سيارة قادمة تقفز واقفة، ولكن السيارة كانت مجهولة منها. إنها كاديلاك زرقاء تسوقها امرأة تلف شعرها بوشاح أبيض.

قطبت ديبرا جبينها وسارت إلى قمة الدرجات المؤدية إلى الشرفة . . وعندما عرفت أن القادمة مارشا ماتيوس تملكها إحساس فظيع بمتاعب قادمة.

نزلت مارشا من السيارة وصعدت الدرجات نحو ديبرا التي قالت:

ـ مرحباً يا آنسة ماتيوس. أتريدين رؤية آرون؟ ليس هنا مع الأسف.

تأملتها مارشا بوقاحة: يا عزيزتي، لا أريد أن أرى آرون . . . أريد

رؤيتك أنت.

هتفت ديبرا: «أنا؟ لماذا؟ لا أظن لدينا ما نخبر به بعضنا البعض».

ـ ليس على الباب يا عزيزتي، ولكن إذا كان لديك لباقة ودعوتني للدخول، فسنجد الكثير لنقوله لبعضنا البعض.

تمتمت ديبرا ببطء: «لا أظن ذلك».

ـ لماذا؟ هل أنت خائفة؟

سألتها ديبرا متصلبة الجسم: «وما يخيفني؟»

ـ هذا ما ستعرفينه . . هيا، ادعيني للدخول. يا لك من فتاة طيبة! الجوّ حار في الخارج.

قالت ديبرا بتوتر: «لست فتاتك الطيبة . . اذهبي من فضلك، فليس بيننا ما يقال».

ابتدأ صبر مارشا ينفد:

ـ ما الذي تريدين أن أقوله هنا؟ شيئاً قليلاً مما جئت لأجله؟ ثم تدعينني إلى الدخول؟ حسناً يا حلوتي، ماذا لو بدأنا بذكر علاقة دومينيك بأمك؟

شحبت وجنتا ديبرا: «ماذا تعلمين عن أمي؟»

ـ اسأليني في الداخل وسأخبرك . . واثقة من أنك لا تريدين أن يسمع الخدم حديثنا.

أخذت ديبرا تتنفس بسرعة، ونظرت حولها بشيء من الخوف. ولكن فضولها لم يسمح لها بأن تفلت هذه الفرصة إذ طالما سمّم هذا الأمر بالها.

رأت مارشا ترددها، فاستغلته قائلة:

ـ ديبرا، أظنك تريدين أن تعلمي الحقيقة. أليس كذلك؟ وبعد، إنها أمك على كل حال.

ارتدّت ديبرا فجأة: «تفضلي بالدخول».

وسارت أمامها وهي تضغط وجنتيها براحتيها. في غرفة الاستقبال الفسيحة اتكأت مارشا على الأريكة بكل راحة، ثم قالت:

- أريد فنجان قهوة، إذا كان هذا لا يثقل عليك.

ترددت ديبرا موشكة على الرفض، لكنها غيّرت رأيها وسارت إلى المطبخ تعدّ القهوة بأصابع مرتجفة. وعندما ذاقت مارشا القهوة وأعجبتها. أشعلت سيكارة ثم قالت:

- لا بأس يا ديبرا. يمكننا التحدث الآن.. رأيت أن الوقت حان لكي يريك شخص ما طريق الحكمة.. أعني أن من الواضح أن شعورك نحو دومينيك ليس شيئاً جاداً. أعني أنك منجذبة إليه، ولكن ألسنا جميعاً كذلك؟ لا أريد أن تتعرضي للاستغلال.

قالت ديبرا بصوت ضعيف: «الاستغلال؟»

- نعم يا عزيزتي، الاستغلال. ما هي معلوماتك عن دومينيك وأمك؟

شعرت ديبرا بشيء من الغثيان: «وماذا هناك لأعرفه؟»

أجابت مارشا هازئة:

- يا عزيزتي الصغيرة البريئة.. لقد كانت أمك ودومينيك ماكجيل أكثر من مجرد صديقين.

ارتجفت ديبرا: لا، لماذا تقولين هذه الأشياء؟

- لأنها صحيحة، ولأن لا أحد آخر سيكسر ذلك البيت الزجاجي الذي تعيشين فيه ويخبرك بالحقيقة. يا الله! من المؤكد أنك تكهنت بأنه يعرفها جيداً.

- طبعاً... لقد كانا صديقين.

قالت مارشا بابتسامة هازئة: صديقين؟ اسأليه كيف استطاع الإنفاق على رحلة إلى الفيليبين بعد أن قرأ آرون أول تمثيلية له. اسأليه عن ذلك واسمعي ما يقوله.. لقد أخذته أليزابيت العزيزة معها لأنها كانت بحاجة إلى الراحة، أو هذا ما قاله الطبيب كما يبدو. الراحة في جولة مع دومينيك.

قبضت ديبرا يديها: «كفى! أنا لا أصدقك، و.. ولن أصدقك».

- ولماذا لا؟ دومينيك ليس قدّيساً، ولا يدّعي ذلك. وحظاً سعيداً له، فأنا لا أهتم مثقال ذرة به وبعلاقاته الكثيرة مع النساء، أما أنت فتتصرفين بحماقة وتتصورين أن اهتمام دومينيك بك هو شيء شخصي، وهذا ما آلمني.. إنه يستغلك يا حلوتي، فأنت أليزابيت ستيل التي عادت إليه، وعندما يأخذك بين ذراعيه يفكر فيها هي.

- لا.

أشاحت ديبرا بوجهها لأنها لم تعد تستطيع احتمال سماع أكثر من ذلك.. فهذا ما طالما خافت منه وأسوأ. كان دومينيك يعلم أن أليزابيت متزوجة بآرون، ومع هذا لم يهتم للأمر... ولم تعد تستطيع التفكير.. فقد جعلها ذلك تشعر بالغثيان.

ارتدّت إلى مارشا التي كانت وقفت تنظر إليها بعينين ظافرتين هازئتين:

- ترين يا صغيرة أنه كان لدينا الكثير مما نقوله لبعضنا بعضاً، وأظن هذا كل شيء.. الأفضل أن أذهب لأنني أكره أن أكون هنا عندما يعود العزيز آرون إلى بيته، فأنا وهو غير منسجمين.. وداعاً يا حلوتي. فكري في الأمر تجديه صحيحاً.

اتجهت إلى الباب وخرجت، تاركة ديبرا مع أحزانها. وإذا كان كلام مارشا صحيحاً، فقد ضللها عامداً، ليس بما قاله فقط بل بما جعلها تعتقده. كل ما أخبرها به عن أمها وكم كانت محبة سخية قد يكون كله كذباً لفّقه ليبرئ نفسه وأليزابيت من شبكة خداعهما. آه! كيف أمكنه ذلك؟.. كيف أمكنه؟

تهالكت على مقعد قريب دافنة وجهها بين يديها، تاركة الدموع الحارة تنهمر على وجنتيها. إذا اعتبرت وضعها سيئاً من قبل، فهو أسوأ الآن بعشر مرات.. إنها لن تستطيع العمل معه بعدما عرفت بمعاملته لها وهو يتخذها بديلاً لأمها. كان الأمر مثيراً للاشمئزاز بكافة أشكاله، فلو كانت أمها على قيد الحياة لكانت في الرابعة والخمسين، وما كانت

لتتناسب على الإطلاق مع نوع حياة دومينيك.

تنهدت وهي تمسح عينيها وتصعد إلى غرفتها.. كان ذهنها في دوّامة، فأخذت حبتي أسبرين لتخفّف من الصداع الذي تملكها.. قريباً يعود آرون وعليها أن لا تريه ما هي عليه من انزعاج، فهو يحب دومينيك ويعامله كصديق حميم. ومن الواضح أنه لم يكن يعلم ما كان يدور بين زوجته والكاتب الشاب.

جلست أمام مرآتها تنظر إلى الخطوط القاتمة حول عينيها؛ الشاهد على اضطراب نومها في الليلة الماضية.. كانت بحاجة إلى وقت تفكر فيه، تقرر ما عليها أن تفعل الآن. لكنها لم تجد شيئاً تقوم به دون أن تؤلم آرون.

وقفت وأشعلت سيكارة وهي تفكر في أنها أصبحت تدخن كثيراً، ولكنها مؤخراً كانت تعيش على أعصابها، فالتدخين يساعدها.

وعندما عاد آرون حوالى السادسة والنصف، استطاعت أن تقابله بهدوء تام وقد استقر عقلها تقريباً على ما ينبغي عليها أن تفعل..

عندما قبلت وجنته مرحبة، ابتسم بحرارة متمتماً: تبدين فاتنة. هل ستخرجين هذا المساء؟

ـ لا.. هل قمت بأي ترتيبات؟

ـ ليس تماماً. أخبريني.. هل علمت أن دومينيك مريض؟

كفّ قلبها عن الخفقان، ولكنها دخلت غرفة الجلوس ببساطة وهي تقول:

ـ أحقاً؟ لا.

ـ نعم، ربما كلمة «مريض» ليست الكلمة الصحيحة على الأقل، فقد أجهد عضلات ظهره الليلة الماضية. يبدو أنه قام بجهد بالغ الليلة الماضية، فعاد إليه الألم القديم ليزعجه.

جمدت ديبرا في مكانها وهي تبلل شفتيها الجافتين بلسانها: «الليلة الماضية؟ هل عرفت السبب؟»

ـ لا.. أظنه ركب قارب الحسكة رغم علمه بأن هذا ممنوع عليه، ولكنني أعرف أن دومينيك، عاجلاً أم آجلاً، سيضيق ذرعاً بالقيود.

جلست ديبرا على الأريكة وهي تسأل:

ـ تحدثت عن إصابة في الظهر. ماذا كانت تلك الإصابة؟

ـ عندما أصيب في حادث سيارة منذ سنوات عانى من إصابة في ظهره مؤلمة جداً، حتى أنّ قدرته على السير مرة أخرى لم تكن مضمونة في البداية، ولكن دومينيك يملك إرادة خارقة.

ـ ولكنه يسبح ويرقص. ألا يؤثر هذا في ظهره؟

ـ ليس تماماً، الجهد الشاق فقط هو ما عليه الاحتراس منه.. حسناً، لقد ركب الحسكة، ولكن سبق أن قام بذلك من قبل ولم يحدث له شيء.

غصت ديبرا بريقها.. إذا أخبرت آرون كيف أجهد دومينيك نفسه فسيكون عليها أن تخبره بالقصة كلها، لكنها كانت أغفلت ذكر كل شيء عن حفلة الليلة الماضية، فقد أحضرها ڤيكتور إلى البيت وكان آرون قد نام باكراً.

قالت محنية الرأس: «كيف حاله الآن؟»

أجاب باسماً: «أحسن صحياً منه مزاجياً، فهو يكره أي شكل من الاهتمام به، ولكنه في حالته هذه، لا يستطيع منع ذلك. أظنه سينهض من فراشه خلال يوم أو يومين».

ـ هل رأيته؟

ـ طبعاً، فقد اتصل بي تليفونياً هذا الصباح وتناولنا الغداء معاً. لماذا تسألين؟ هل تريدين رؤيته؟

ـ لا.

هز آرون كتفيه: «لا بأس، لا بأس، لا تغضبي. ألم تتغلبي على ذلك الضيق البسيط بينكما؟ كنت أظن الليلة الماضية قد أرتك أن موقفك كان دون أساس. على كل حال.. عليّ أن أذهب لرؤيته هذه الليلة. عليه أن يذهب إلى سان فرانسيسكو غداً حيث ثمة مؤتمر يتعين على واحد منا أن

بحضره، وأظن عليّ ذلك».

ـ هل ستذهب إلى سان فرانسيسكو؟

ـ نعم. لماذا؟ هل تريدين المجيء معي؟

ـ لا، حسناً.. كل ما في الأمر أنني اعتدت على هذا المكان الآن، ولا أريد أن أتركه، هذا إلى أنني وعدت آل بلير بتناول الغداء معهم.

ابتسم آرون: هذا حسن.. وليس عليك أن تقدمي أعذاراً يا عزيزتي، فأنا أعرف شعورك.

سألته بشكل عفوي: كم سيطول غيابك؟

ـ يومين أو ثلاثة. لماذا؟ هل لدينا أية أمور أخرى؟

رفعت ديبرا كتفيها: لا أظن ذلك، يا آرون.

تنهد متعباً: «هذا حسن، والآن عليّ تغيير ملابسي للعشاء فأنا أشعر بالحر والغثيان وأريد الاستحمام».

ذهب آرون لتغيير ملابسه بينما خرجت ديبرا إلى الشرفة.. آرون سيسافر، وهذا يعني أن أمامها ثماني وأربعين ساعة عليها أن تنفّذ فيها خطتها.

* * *

سافر آرون في الصباح التالي بعد العاشرة مباشرة. وبعد ذهابه هرعت ديبرا إلى غرفتها وسحبت حقيبة ثيابها التي سبق أن ملأتها في الليلة السابقة فقط بملابسها التي أحضرتها معها إلى أميركا عند قدومها لأول مرة.

اتصلت بالمطار في المساء السابق ووجدت أن ثمة طائرة مغادرة إلى نيويورك ظهر هذا اليوم. فحجزت مقعداً فيها كما طلبت سيارة أجرة لتنقلها من منزل آرون.. لقد أنجزت كل هذه الأشياء أثناء زيارة آرون لدومينيك، ورغم أن ضميرها أزعجها لمعاملتها آرون بمثل هذه القذارة، إلا أن نقص سيطرة العقل لديها جعلها تندفع بذعر إلى العمل دون تفكير.

في الطابق الأسفل تقدمت منها أستيل الخادمة تسألها بدهشة

واضحة:

ـ هل أنت مسافرة يا آنسة ديبرا؟ لم يذكر السيد جونسون شيئاً عن ذلك.

قالت ديبرا بابتسامة خفيفة مصطنعة:

ـ أنا.. أنا ذاهبة إلى بعض الأصدقاء لقضاء ليلة واحدة، وهذا كل شيء. ربما نسي السيد جونسون أن يخبركم بذلك، فقد كانت رحلته مفاجئة، وأظن أن لديه أشياء أخرى في ذهنه.

قالت أستيل ببطء:

ـ نـ... نعم. أظن هذا. إلى أين نتصل بك عند الحاجة يا آنسة ديبرا؟

ترددت ديبرا: لماذا؟ هذا لن يكون ضرورياً، إذ سأعود غداً مساء قبل عودة السيد جونسون بكثير.

ـ ولكن من المؤكد أن بإمكانك أن تتركي لنا رقم تليفون يا آنسة ديبرا.

ضغطت ديبرا شفتيها وقالت ببرودة:

ـ تتجاوزين حدودك يا أستيل.

قالت أستيل بجمود: «آسفة يا آنسة».

سار كل شيء بسهولة بعد ذلك.. فرحلتها إلى نيويورك مضت بهدوء، وعند وصولها تمكنت من الانتقال إلى طائرة البوينغ التي ستأخذها إلى لندن.

لسوء الحظ حدث خطأ يسير في محرك الطائرة فاضطروا إلى الهبوط في «غاندر» متأخرين عدة ساعات، وإذ تملك ديبرا الاضطراب وفروغ الصبر لتأخرها عن العودة إلى أرض الوطن، أخذت تتساءل عما إذا كان هناك من اكتشف فرارها الآن.

وأخيراً تابعت الطائرة رحلتها.. وسرعان ما أخذت الاستعدادات في الطائرة تجري للهبوط في مطار لندن، وعلى الأرض تسارعت الاجراءات لاستقبالهم بينما تنهدت ديبرا بارتياح وعجلات الطائرة تمس الأسفلت.. لقد عادت إلى وطنها، إلى الناس والأماكن التي ألفتها طوال حياتها.

عندما وصلت إلى مكتب التسجيل، ناولتهم جوازها دون تفكير. . الليلة ستستأجر غرفة في فندق صغير، وغداً تذهب إلى بلدتها «فاليداون» وتسأل عما إذا كانت وظيفتها في المدرسة الثانوية ما زالت في انتظارها.

كان موظف المكتب يتحدث إليها: «الآنسة وارن؟»

عادت بذهنها إلى الحاضر: نعم. آسفة. ما الذي كنت تقوله؟

ابتسم الموظف: «هل لك أن تأتي من هذا الطريق يا آنسة وارن؟ هنالك بعض الأسئلة التي تتعلق بدخولك إلى البلاد».

- ماذا؟ لا أفهم.

بدا الاعتذار على وجه الموظف: فقط تعالي من هنا.

أخذ بقية الركاب ينظرون إليها باستغراب، وتملكها شعور فظيع وهي تتبع الموظف الذي فتح باباً خلف المكتب ثم أغلق الموظف الباب فأصبحت وحدها، أو لعلها لم تكن كذلك، لأن ظهر كرسي مرتفع متحرك دار خلف المكتب ثم واجهها.

شهقت: أنت؟ ولكن. . لا يمكن أن تكون موجوداً هنا.

ابتسم دومينيك ساخراً: آه، بل يمكنني ذلك.

***

٨ - رسالة من أمها

لم تعد ساقا ديبرا تستطيعان حملها فتهالكت على كرسي قبالة دومينيك وشعرت بالضعف والعجز وعدم القدرة على القيام بأي نوع من الحديث معه.

قال بخشونة: «لا تبدي محطمة بهذا الشكل، لأنك كنت تعرفين أن واحداً منا سيلحق بك. من حسن الحظ أنني اكتشفت رحيلك قبل أن أصاب أنا أو آرون بصدمة سيئة».

- لا أفهمك.

- لا تفهمين؟ ولكن الأمر سهل. لقد توقعت أن يصحبك آرون معه عندما يأتي لزيارتي في الليلة السابقة لسفره. وعندما لم تأتي اتصلت بك في اليوم التالي فأخبروني أنك غير موجودة.

هزت ديبرا رأسها وسألته بصوت متعب:

- وما الذي جعلك تفكر في أنني قصدت إنكلترا؟

- أسباب كثيرة، أهمها مواجهتنا الأخيرة.

- لماذا؟

- لأنك لا بد أدركت أنني لن أدع الأمر يقف عند ذلك الحد.

احمر وجهها: «يبدو أنني كنت على صواب».

تمتم غاضباً: «على صواب تام» ومال في كرسيه إلى الأمام.

- ظننت. . . ظننتك مصاباً. . . أعني ظهرك.

- ظهري غير مهم بالنسبة لكل هذا. . .

www.liilas-romancia.com

ـ لا، ليس مهماً . . فهمت أنك مشلول تقريباً.

بدت السخرية على دومينيك وقال ثائراً:

ـ وما أكثر ما كان اهتمامك! إذا كنت مصرّة على الحديث عن هذا فعلى الأقل لا تظهري عطفاً زائفاً بسؤالك عني.

اتسعت عيناها: «كان ذلك مجرد اهتمام غير شخصي».

ـ هذا واضح . . ولماذا كنت تريدين أن تعلمي؟ هل للشماتة بي لمرضي؟! لا . . شكراً.

أشعل سيكارة ثم نهض واقفاً وتقدم يقف بجانبها مسبباً لها التوتر.

ـ وهكذا يا ديبرا الصغيرة، يمكنك أن تجيبي عن عدة أسئلة. لماذا هربت بهذا الشكل؟ وما الذي جعلك تسرعين هكذا؟ هل نقول سوء حظنا؟ ثم ماذا تريدين أن تفعلي الآن هنا؟»

أخذت ديبرا تتأمل أظافرها، ثم قالت وهي تعض شفتها تمنعها من الارتجاف:

ـ إنك كثير السخرية. هل تستمتع بمضايقتي تماماً؟

أجاب ببرودة:

ـ ليس بشكل خاص، ولمعلوماتك، أفضّل لو كنت الآن في فراشي، إذ رغم نشاطي الظاهر ما زلت أشعر بضيق بالغ في ظهري، وهذا لا بد يسرك كثيراً. وهكذا كلما قرب انتهاء هذه المقابلة بيننا وعدنا معاً إلى لوس أنجلوس، كان ذلك أفضل بالنسبة إليّ.

لم تستطع ديبرا أن تمنع فيضاً من الحب والاهتمام من التدفق في كيانها . . تلوّى قلبها ألماً وهي تظن أن هذه آخر مرة ترى فيها هذا الرجل . . كيف أمكنها أن تتركه بهذا الشكل دون أن تعرف كيف أصبح؟ ثم تذكرت سبب هربها فاشتد عزمها.

وهكذا قالت بعزم: أنا . . . أنا لن أعود، ولا يهمني ما ستفعله بالمال أو بأي شيء آخر. كل ما في الأمر أنني أريد أن تتركوني بسلام . . آسفة لأجل آرون، وسأكتب إليه شارحة له كل شيء . . ولكن الأمر انتهى

تماماً.

خبط دومينيك بقبضته على المكتب بعنف فأجفلت.

تمتم غاضباً: «إنك طفلة جاهلة أنانية مدللة! ما الذي تعنينه بقولك إنك ستكتبين إلى آرون وتشرحين له الأمر؟ وما هذا الذي ستشرحينه؟ ما هو السبب الذي تقدمينه لكي تحطمي قلب الرجل العجوز؟»

فردت عليه بحدة: «ما أروعك وأنت تتحدث عن تحطيم القلوب»!

قال والشرّ في عينيه: ما معنى هذا؟

أجابت بغضب: «كما تظن معناه بالضبط».

قال بوحشية: «إنك تقولين هذا لي في وقت غير ملائم. أي قلب حطمته إذا كان هذا ما تعنينه؟»

ـ إلى حدّ ما.

ـ آه، هيا يا ديبرا، وانطقي وكفى مبارزة معي، وإلا فقدت أعصابي.

نهضت ديبرا الآن واقفة بدورها:

ـ حسناً يا سيد ماكجيل، سأخبرك . . سبب ما قمت به هو شيء . . . شيء أكثر من مغازلتك لي. لا بأس! فهذا جزء منه، لم أكن أنوي أن أدعك تعاملني بنفس معاملتك لكل النساء الأخريات، ولكن هذا لم يكن كل شيء . . تذكّر يا سيد ماكجيل، تذكّر منذ عشر سنوات، أعني أمي في الواقع.

ضاقت عينا دومينيك: تابعي كلامك.

فصرخت بحرارة: لقد جاءت مارشا ماتيوس لتراني قائلة إن الوقت قد حان لكي أفتح عيني على ما كان بينك وبين أمي. قالت إنك كنت عشيقها.

أصبحت عينا دومينيك كقطع الثلج: مارشا أخبرتك بهذا؟

ـ نعم، وليس هذا فقط. فقد أوضحت أن أليزابيت ستيل كانت السبب في دفعك إلى النجاح. هذا فظيع ومثير للاشمئزاز.

وأشاحت بوجهها لأنها لم تعد تستطيع النظر إليه.

تملك دومينيك الجمود التام لحظة، ثم عاد يسألها: «هل أخبرتك مارشا بهذا؟»

وعندما أومأت إيجاباً، قال: «وهل صدقتها؟»

أجابت وهي تضغط وجنتيها الملتهبتين براحتيها: «طبعاً صدقتها».

لم يقل دومينيك أكثر من ذلك، وإنما سار نحو الباب وخرج منه مغلقاً إياه خلفه بهدوء.. كان عملاً منضبطاً ومع ذلك عنيفاً، أما ديبرا فوقفت جامدة تماماً، ورفعت وجهها بتساؤل وشك.. لقد رحل! هذا غير ممكن.

سمعت طرقاً متردداً على الباب تبعه دخول الموظف وهو يقول بأدب:

ـ استقر الأمر الآن، ويمكنني السماح لك بالمرور.

* * *

ما زالت ڤاليداون كما كانت بالضبط منذ ثمانية أسابيع. بدا شارعها الرئيسي الطويل ضيقاً كئيباً بعد كاليفورنيا المشرقة الدافئة، وبدت البيوت صغيرة متقاربة، حتى المدرسة الثانوية بدت قديمة الطراز محصورة.. تركت ديبرا أمتعتها في غرفة أمانات محطة الباصات، ثم سارت في المدينة إلى المدرسة حيث رحبت بها المديرة الآنسة غانتري قائلة:

ـ فهمت أنك تركت مركزك في أميركا بسبب شيء يتعلق بوضعك الشخصي.

أومأت ديبرا وسألتها بهدوء:

ـ هل من الضروري أن تعرفي التفاصيل يا آنسة غانتري؟

قطبت الآنسة غنتري حاجبيها:

ـ لا، ليس تماماً. مع أن عليّ أن أعترف أن الوضع يثير فضولي، فقد كنت حريصة على الذهاب إلى أميركا، ولا أدري ما الذي غيّر رأيك.

تنهدت ديبرا: «إنها قصة طويلة، ولكنني حالياً لا أشعر بالرغبة في التحدث عنها.. وبصراحة بدا لي أن حياتي تمزقت».

نظرت حولها إلى المكتب المألوف لديها، ثم تابعت تقول: «إنني

مسرورة لعودتي إلى هنا والقيام بعملي المعتاد».

ابتسمت لها المديرة متفهمة:

ـ لا بأس يا عزيزتي. لن أفرض عليك الكلام. ولكن بإمكانك الإفضاء إليّ إذا وجدت نفسك في متاعب.

ـ شكراً، هل... هل تعرفين مكاناً أستطيع استئجار مسكن فيه، هنا في المدينة؟

ـ تستأجرين؟ ولكن خالتك.

ـ لقد انفصلنا أنا وخالتي، عن بعضنا بعضاً، ولهذا أنا بحاجة إلى مكان أقيم فيه.

ـ فهمت، أعتقد أن السيدة هاريسون في شارع الملكة تؤجر غرفاً، حاولي الاتصال بها.

ـ شكراً، وماذا عن وظيفتي هنا.

ـ الوظيفة طبعاً ما زالت لك، فإن الآنسة فيلبس ستعود إلى أميركا في نهاية الفصل الصيفي. يمكنك متابعة العمل كالعادة بعد العطلة الصيفية.

ـ آه، شكراً، شكراً.

ـ هل كنت تظنين العكس؟

ـ حسناً، بعد الطريقة التي تصرفت بها في سان فرانسيسكو، شعرت بالخوف من...

وسكتت لحظة تابعت بعدها: إني سعيدة بالعودة الآن، وسأذهب إلى السيدة هاريسون حسب إرشادك. ما هو رقم منزلها؟

* * *

كانت السيدة هاريسون امرأة طويلة متجهمة الوجه في أواخر الخمسينات من العمر، ذات عينين نفاذتين وشعر بني خطه الشيب. ولكن ديبرا، في الواقع، لاحظت روحاً فكهة في العينين النفاذتين وذكاءً في خطوط الجبهة، ومن حسن حظ ديبرا أن وجدت لديها غرفة خالية.

بعد عودتها إلى «ڤاليداون» بأسبوع، وجدت نفسها في منطقة تؤدي

www.elromancia.com

إلى الشارع الذي يقوم فيه منزل خالتها، فسارت رغماً عنها نحو المنزل تنظر إلى ستائر النافذة الدانتيل. كان البيت يبدو خالياً، فعبست وقطعت الطريق إليه يتملكها الإغراء في أن تقرع الجرس لترى إن كانت خالتها هناك أم لا.

وإذا بالسيدة مانيرين التي تسكن في الجوار تخرج بعجلة. لقد اعتادت ديبرا دوماً القول إن كل ما يحدث في الحي علمه عند السيدة مانيرين هذه.

حيّت ديبرا بعينين فضوليتين وقالت: «إذا كنت تبحثين عن خالتك فهي ليست موجودة».

أوشكت ديبرا على القول إنها لم تحضر لرؤية خالتها، إلا أن شيئاً في ملامح المرأة جعلها تقول ببساطة: «لا؟ وأين هي إذن؟»

ـ ألا تعلمين؟

هزت ديبرا كتفيها: لو كنت أعلم لما سألتك.

نظرت المرأة إليها برهة، ثم قالت:

ـ حسناً، لقد سافرت إلى إيطاليا كما سمعت.

ـ إيطاليا؟

ـ نعم، إيطاليا، لقضاء عطلة. ومن المحتمل جداً أن تتابع الرحلة من هناك.

ـ ولكن... حسناً، فهمت.

عضت شفتها. إنها لا تستطيع أن تخبر هذه المرأة أن ليس لدى خالتها من المال ما يكفي للقيام بمثل هذه الرحلات، ولكن السيدة مانيرين لا بد تكهنت بأفكارها، فقالت:

ـ لقد ربحت مسابقة، وهذا ما جعلها تتحمل النفقات.

ـ مسابقة؟

لم تكن خالتها قط من ذلك النوع الذي يدخل في مسابقات.

ـ نعم، ربحت عدة آلاف من الجنيهات في المراهنات.

ذهلت ديبرا: المراهنات؟ أتعلمين متى ستعود؟

ـ لا، ولكنها ستتأخر. لقد تركت مفتاح البيت معي.

ـ معك؟ وهزت رأسها بارتباك. لم يكن من عادة خالتها جوليا قط أن تترك المفتاح مع أحد.

ـ هل تريدين الدخول؟

ـ لا، ذلك...

وترددت ديبرا. أليست فرصة سانحة لتحضر حاجياتها التي لم تشأ أن تفقدها؟

ـ نعم، هل لديك مانع؟

ـ لا بالطبع. فهو بيتك.. أليس كذلك؟

وقطبت جبينها ففكرت ديبرا أنها لم تعلم بما حدث في أميركا.

تابعت المرأة: «لم تكن خالتك تتوقع عودتك.. أليس كذلك؟»

ـ لا، لا. لم تكن تتوقع عودتي، هل لك أن تعطيني المفتاح يا سيدة مانيرين؟

ـ لا بأس.. أتريدين الدخول لحظة وتناول كوب شاي؟

ـ لا، شكراً، أريد... أريد فقط أخذ بعض الكتب.

دخلت ديبرا إلى بيت خالتها وأقفلت الباب خلفها بالمفتاح. ثم سارت في الرواق حتى غرفة الجلوس.. كانت روائح الرطوبة تفوح من كل مكان وتساءلت كم مضى من الوقت على سفر خالتها، فقد كان الغبار في كل مكان.

صعدت إلى غرفتها وأخذت تجمع حاجياتها الصغيرة الشخصية: كتب، رسائل من أصدقاء المدرسة، بعض المنحوتات الصغيرة وحقيبة صغيرة تحتوي على أشياء عاطفية مثل شهادات ودفاتر مدرسية وبعض التذكارات من إجازات أمضتها على الشاطىء.. كانت الحقيبة نصف فارغة وهكذا وضعت الأشياء الأخرى فيها وأقفلتها جيداً ثم خرجت إلى منبسط السلم حيث أوقفت حقيبتها، ثم نظرت إلى غرفة نوم خالتها التي كانت دوماً بالغة النظافة والنظام، ولكنها ترى الآن رسالة ملقاة بدون

اكتراث في وسط الغرفة، وعندما انحنت ديبرا بحركة آلية لتلتقطها، رأت حقيبة قديمة تحت سرير خالتها.. سحبت الحقيبة وفتحتها لتدسّ فيها الرسالة فوقع نظرها على مغلف يحمل طابعاً أمريكياً.

جلست القرفصاء تنظر إلى ختم البريد على المغلف (لوس أنجلس)... شعرت ديبرا بقلبها يقفز بين أضلعها، قد تكون هذه مصادفة وقد لا تكون.. عادت تنظر إلى الرسالة التي بيدها فإذا هي بيان من البنك يعود تاريخه إلى سبعة أشهر. وهو باسم خالتها ويكشف عن رصيد كبير في البنك.. تملك الذهول ديبرا، لا بد أن هناك خطأ ما، فخالتها لم يكن لديها قط أكثر من تعويض التقاعد، وما كان بإمكانها أن تدخّر مثل ذلك المبلغ.

عضت ديبرا شفتها بشدة، وحاولت قهر الانقباض الذي شعرت به في صدرها، والتوجس من كارثة قريبة. أخذت تتفحص البيان دون حماسة، فإذا فيه كل السحوبات التي جرت أثناء السنة الماضية، ثم مبلغ الفائدة الكبير.

وضعت ديبرا بيان البنك في الحقيبة ثم عادت إلى المغلف تخرج منه رسالة فتحتها وأخذت تقرأها. بدأت الرسالة تقول (عزيزتي جوليا) وعندما نظرت إلى أسفل قرأت (المخلصة أليزابيت). دارت الغرفة بها لحظة، وبعدما تلاشى الدوار أخذت تقرأ باهتمام مشوب بالألم.

ما إن انتهت الرسالة حتى تهالكت على الأرض شاعرة بخسارة ساحقة.. ربما هذه هي الرسالة الوحيدة من أمها التي تقرأها ولكنها تبرز بشكل أفصح من الكلمات بساطتها ومقدار ندم أمها لتسرّعها في ترك ابنتها ديبرا مع أختها، وتظهر أسئلة لا تحصى عنها وعن صحتها ودروسها عن أصدقائها وشكلها. وأهم شيء من وجهة نظر ديبرا كان ذكرها للشيك الذي وضعته أليزابيت مع الرسالة.. ومن فحوى الرسالة بدا واضحاً أن جوليا كانت ترسل نفقة ابنتها، ومن هنا تجمع لدى جوليا حسابها هذا في البنك، وما هذه إلا رسالة من الرسائل فقط. وتساءلت ديبرا وهي ترتجف

كم رسالة أرسلت أليزابيت؟

تركت جانباً احترامها لخصوصيات خالتها، وأخذت تفتش محمومة بين الأوراق في الحقيبة، وأخيراً وجدت ما تبحث عنه؛ دفتر رصيد البنك الذي أخذت تتفحصه وما لبثت أن تأوهت، كانت جوليا تتسلم مبلغاً شهرياً.. أعادت كل شيء إلى الحقيبة تحت السرير، ثم نهضت واقفة، وسارت بخطوات غير ثابتة إلى الباب واتكأت عليه شاعرة بسقم حقيقي لأنها علمت أن جوليا لم تربح في المراهنات وإنما المبلغ هو نتيجة توفيرها طوال تلك السنوات الماضية. ما أسوأ حظها الذي جعل أمها تموت! تملكت ديبرا السخرية وهي تتساءل عما دعا خالتها إلى الانتظار حتى الآن لكي تنفق النقود، إلا إذا كان سبب حفظها لسرية النقود رغبتها في إبقاء ديبرا مرتبطة بها مالياً وجسدياً، وبعد أن علمت ديبرا الحقيقة أصبحت خالتها حرة في أن تفعل ما تريد الآن.

دخلت ديبرا إلى الحمام مترنحة، ثم انحنت فوق الحوض بضعف. ظنت أنه لن يحصل لها أكثر مما حصل، وكم كانت مخطئة! ما إن اتكأت هناك محاولة أن تتمالك مشاعرها حتى رن جرس الباب فانتصبت واقفة تمسح وجهها بالمنشفة، وقررت عدم الإجابة فليس هناك من يعلم بوجودها هنا. ولكن.. السيدة مانيرين تعلم بوجودها هنا، وستتساءل عما منع ديبرا من فتح الباب إذا هي تجاهلت الجرس.

هبطت السلم مترنحة وتوجهت إلى الردهة الصغيرة ثم فتحت الباب.. وإذا بها تتراجع إلى الخلف مصعوقة لأنها رأت آرون يدخل. رأى وجهها الشاحب والعذاب الهائل في عينيها، فأغلق الباب وأخذها بين ذراعيه فتعلقت به بشدة.

***

٩ ـ البيت حيث يسكن القلب

بعد ذلك بساعة كانت ديبرا وآرون جالسين في غرفة جلوس فندق «كراون» في سوق «ڤاليداون». . وهناك حدثت ديبرا آرون باختصار عن الأشياء التي عثرت عليها مصادفة عصر هذا اليوم، فاستمع إليها دون مقاطعة.

وأخيراً قالت: «هذا هو ما حدث، إنني الآن على الأقل لا أشعر بأي التزام نحوها لأنها ربتني. . آه يا آرون! لماذا فعلت ذلك؟ لماذا لم تكن بشراً. . أعني كلنا بشر. أليس كذلك؟»

أشعل آرون سيكاراً وعلى شفتيه شبه ابتسامة، ثم قال مربتاً على يدها:

ـ نعم، كلنا بشر، والآن لدينا الكثير مما يهمنا لكي نتحدث عنه. لماذا هربت مني يا ديبرا؟ لماذا فعلت ذلك؟

ابتلعت ديبرا ريقها بصعوبة: ألم. . ألم يخبرك دومينيك؟

ـ قليلاً، قليلاً. ولكنني أريد أن أسمعه منك.

ـ حسناً، من المؤكد أن لديك ما تشكك فيه. وعلى كل حال حذرتني بنفسك من دومينيك.

ـ هذا صحيح، ولكن ذلك كان قبل. . .

وسكت، ثم عاد يقول: «على كل حال لا يمكن أن يكون هو كل السبب، فلا أصدق أنك تهربين من دومينيك دون أن تخبريني بالسبب. . هناك شيء أكثر من هذا. أليس كذلك؟ هيا، أخبريني. . أريد أن أعلم».

هزت ديبرا رأسها: ألم يخبرك دومينيك بهذا أيضاً؟

ـ الحقيقة أنه فعل.

ـ ماذا قال؟

ـ نعم، أخبرني بقصة رأتها مارشا ماتيوس ملائمة لتمتعك بها. هل كلامي صحيح؟

حدقت ديبرا إليه: هل أخبرك بذلك؟

ـ ولماذا لا؟ فنحن صديقان لا نكذب على بعضنا بعضاً.

اتسعت عيناها: وهل تصدقه؟

أظلم وجه آرون غضباً:

ـ ديبرا، لا تقللي من شأن علاقتنا، فلا شيء مما سمعته يحمل ذرة من الحقيقة. . ولكن يبدو أنك أصغر من أن تفهمي ذلك، كيف تصدقين كلام امرأة مثل مارشا ماتيوس دون أن تسأليني لتعرفي الحقيقة.

التهبت وجنتا ديبرا، وقالت ببلادة: «لا أدري ماذا تعني».

لانت ملامحه: «هذا ما يبدو. آه، يا عزيزتي ديبرا! لقد تحملت هذا النهار ما فيه الكفاية. . إنني لن أعنفك لعدم اهتمامك، ولكن يبدو أن الوقت حان لأخبرك عن دومينيك وأمك».

رفعت نظرها إليه: «هل تعلم عنهما؟»

ـ نعم، أعلم. ولكن ليس الذي تتصورينه. ديبرا، لماذا تريدين أن تصدقي أسوأ الأمور عن دومينيك؟ أتراه آذاك بشيء؟

ـ لا، ولكن. . . حسناً. . هل صحيح أنه سافر مع أليزابيت إلى الفيليبين، بعد أسبوعين فقط من قبولكما لتمثيليته.

ـ نعم، هذا صحيح. ولكنهما لم يكونا بمفردهما، إذ كنت أنا معهما أيضاً.

ـ أنت؟

ـ طبعاً، فقد كانت إجازة، ولكننا أخذنا معنا آلات التصوير وأخذنا بعض اللقطات للفيلم الجديد.

ـ فهمت، تابع كلامك.

سألها: «وهل ستصغين بذهن منفتح قليلاً الآن؟»

تنهدت وأومأت إيجاباً.

ـ جيد، هل أبدأ من الأول إذن؟ كم تعلمين عن خلفية دومينيك؟

ـ أعلم ما أخبرني به فيكتور، عن معيشته في نيويورك ليس إلا..

ـ فهمت، حسناً.. عندما كتب «أقينيرا» كنت أنا في نيويورك، وكانت أليزابيت تمثل في مسرحية في «برودواي» بنجاح متوسط، وكان دومينيك يدور على مندوبي شركات التمثيل بتمثيليته تلك. في ذاك الوقت كان يعمل ساقياً في مقهى ولم يكن لديه نقود لأن الفرصة لم تؤاته حتى الآن.. كان يعلم أنه أينما كانت أليزابيت فهناك أنا. وهكذا اعترض طريقنا إلى المسرح ذات يوم ودفع التمثيلية في وجهي، فجن جنوني.. كنت اعتدت على جنون كتاب التمثيليات الذين يحاولون الوصول بسرعة، ولكن دومينيك كان شيئاً آخر. رأته أليزابيت فأعجبها، ولماذا لا؟ لقد كان شاباً بالغ الجاذبية وكان واضحاً أن ليس تمثيليته وحدها ما أعجبها.

عادت وجنتا ديبرا إلى التوهج، ونظرت إلى آرون تقول: «ألم يهمك هذا؟»

ـ لماذا يهمني؟ كانت أليزابيت تحب رؤية الرجال حولها، وهذا لا يعني أن لها علاقة غرامية مع كل واحد تقابله، هذا إلى أن دومينيك كان صغير السن بالنسبة إليها رغم أن خبرته تفوق عمره بسنوات. وعلى كل حال أقنعتني بقراءة التمثيلية، وأخيراً ولأنني كنت مغرماً بأليزابيت فعلت ذلك. في ذلك الحين أدركت أن دومينيك غير عادي الموهبة، وتمثيليته «أقينيرا» ملائمة تماماً لأليزابيت، أو على الأقل دور «لورا» فيها. وهكذا أخبرناه أن تمثيليته أعجبتنا. وأعطيناه مبلغاً مقدماً سرعان ما أنفقه في شراء مرسيدس.. يا له من مجنون غبي!

قال ذلك بمشاعر دافئة تجاوبت ديبرا معها في ذلك. ثم تابع يقول:

ـ كنا قد خططنا لتلك الرحلة إلى الفيليبين.. أرادته أليزابيت أن يذهب معنا قائلة إن بإمكانه أن يدرس كتابة الأفلام السينمائية أثناء قيامنا

بتلك الرحلة.. كنت أعلم أنها ترغب في أن يصحبنا فوافقت على ذلك، وهذه كانت قصة ذهابه معنا.. أعترف يا ديبرا أن أليزابيت كانت معجبة بدومينيك، ولكن، لسوء الحظ، لم يكن دومينيك يهتم بها. ألا يمكنك أن تفهمي؟ كان شاباً بالغ الجاذبية تعود على عشق أجمل الفتيات له، ورغم حاجته إلى المال لم يكن مستعداً لعلاقات مع امرأة تكبره سناً. لقد تألمت أليزابيت في البداية بشكل هائل، فهي ليست بالصلابة والقسوة اللتين صورتهما لك خالتك.. كانت بالغة الحساسية تتألم بسرعة.

شبكت ديبرا أصابعها معاً بشدة وهي تتذكر ما قاله دومينيك مرة عن أليزابيت، وعن أنها حساسة للغاية وتتألم بسرعة، فهل هذا ما كان يعنيه دومينيك؟

تفرّس آرون في وجهها: «ألا ترين يا ديبرا أن السبب في أن دومينيك لم يخبرك بكل هذا ليس خوفه من أن يصل الأمر إلى مسمعي.. أو لأنه كان يحترم أمك؟ بل لأنه كان مولعاً بها ولكن ليس بالمعنى الجنسي وكان يعلم أنه إذا أخبرك كيف كانت تلاحقه لتملكك الاحتقار لها، ولكرهته لتحطيمه مثلك الأعلى فيها».

ضغطت براحتيها على وجنتيها قائلة: مارشا مانيوس كانت واثقة مما تقول.

ـ نعم، ولكن الأكثر من ذلك أنك كنت مستعدة لتصديقها، لأن هذا ما كنت تريدين تصديقه.. لقد دمرت خالتك في نفسك كل المشاعر الطبيعية التي تجعلك تعتقدين أن الناس متشابهون.

نطق بالجملة الأخيرة بغضب بالغ: آه، يا آرون!!

ـ حسناً.. إنها الحقيقة، فمنذ اللحظة الأولى كنت مستعدة لتصديق أية كلمة عن أمك.. وعندما أبدى دومينيك اهتماماً بك ظننت أنه يستعملك بديلة لأمك. أليس هذا صحيحاً؟

قالت وهي تعض شفتها حتى دميت: «أظن ذلك».

ـ لماذا؟ هل لأنك أدركت أنك مغرمة بدومينيك فأخذت تتصورين

هذه العلاقة شيئاً حقيراً فظيعاً. آه، يا ديبرا! ألا ترين كم كنت مخطئة؟ أقسم لك أن دومينيك لم يكن قط عشيقاً لأمك.

أحنت ديبرا كتفيها:

ـ أخبرني عن حادث السيارة الذي وقع له. متى كان ذلك؟

ـ حدث بعد أربع وعشرين ساعة بالضبط من مقتل أمك في حادث الطائرة. لم تكن أليزابيت تريد الذهاب إلى نيويورك لتشترك في ذلك المهرجان، فأقنعها دومينيك بذلك. وكانت تطير من لوس أنجلس إلى نيويورك عندما وقع حادث الطائرة الذي لم ينج منه أحد. يومذاك لام دومينيك نفسه لأنه أقنعها بالسفر في هذه الطائرة بالذات. وبعد يوم على الحادثة ذهب إلى الأوتوستراد بسيارته فوقع الحادث. في عقله الباطني كان يريد الاصطدام فحدث ذلك. ولكن لحسن الحظ لم يُقتل. وأثناء تماثله للشفاء رأى من أنواع التعاسة في المستشفى ما جعله لا يرغب في أن يكون واحداً منهم، وأدرك أنه تصرف بغباء وصبيانية.

ـ فهمت.. أشعر بالحقارة.

ـ بل أنت صغيرة جداً عديمة الخبرة.. ما الذي تريدين القيام به الآن؟

هزت رأسها: «كيف عثرت عليّ؟»

ـ بسهولة بالغة.. فقد افترضت أنك ستعودين إلى بيت خالتك لتعيشي معها مرة أخرى، وهكذا ذهبت إلى هناك، ولكنك لم تجيبي عن سؤالي.. ما الذي تريدين القيام به الآن؟

ـ لا أدري، حقاً لا أدري.

ـ لا تدرين؟ ألا تريدين حقاً أن تعودي إلى أميركا لكي تري دومينيك؟ بحق الله يا ديبرا! كوني صادقة مع نفسك ولو مرة واحدة. أليس هذا ما تريدينه حقاً؟

نظرت إليه ديبرا بعينين دامعتين: وإذا كان ذلك؟

ـ إذن تأتين معي.

ـ لكنني أعني.. أواه، يا آرون! لا أستطيع العمل مع دومينيك.. صدقني لا أستطيع. إذا أرادني حقاً فلن يكون بإمكاني مقاومته.. أنا آسفة يا آرون، ولكنك طلبت مني الصدق ففعلت.

أخذ آرون يتأمل السيكار، ثم قال:

ـ لا بأس.. لا تعملي معه إذن ولا تمثلي الفيلم.

ـ ولكنك تريد مني ذلك.

ـ ليس الأمر قضية حياة أو موت، فسعادتك أهم لديّ من الفيلم.

ابتسمت وهي ترتجف:

ـ أحقاً؟ أصحيح هذا؟ لا أدري ما أقول يا آرون.

قال ضارعاً: «قولي إنك ستأتين معي.. أرجوك يا ديبرا، لا تخذليني».

تمتمت مفكرة: «لقد رتبت لتوّي الأمر مع الآنسة غانتري مديرة المدرسة لكي أبدأ التعليم في أيلول».

ـ سأرى المديرة بنفسي إذا كان هذا ما يقلقك. ما رأيك؟

ترددت ديبرا لحظة: لا بأس سآتي معك.

قال بحزم: «وهذه المرة ستبقين، ولن أدعك تهربين مرة أخرى».

***

انقلبت ديبرا في سريرها، ثم جلست ترمش بعينيها بسبب أشعة الشمس المتسربة من نافذتها نصف المغلقة.. تساءلت لحظة أين هي.. ثم تدفق كل شيء إلى ذهنها.. إنها في غرفتها في بيت آرون في قلب لوس أنجلس. لقد وصلا متأخرين الليلة الماضية فذهبت إلى فراشها.. راحت تنظر إلى حدائق الزهور الفوّاحة، فشعرت بالسعادة العميقة والرضا اللذين رفضت الاعتراف بأن لهما علاقة بدومينيك ماكجيل، فكم سرّها أن تعلم أن انجذابه إليها لا علاقة له بشبهها بأمها!

نهضت من فراشها وارتدت بنطلوناً بلون الخردل وبلوزة صفراء فضفاضة وتركت شعرها الكث مرسلاً، ثم خرجت لتتناول طعام الإفطار

مع آرون.

ابتسم آرون مستحسناً مظهرها، وقال:

ـ لقد افتقدت صحبتك حقاً الأيام الماضية، فأنت تسبغين على جوّ المائدة إشراقاً وبهجة.

بادلته ديبرا الابتسام: «ما الذي ستفعله اليوم؟»

ـ عليّ أن أذهب إلى الإستديو هذا الصباح، وبعد الظهر لديّ اجتماع. ماذا ستفعلين أنت؟

ـ لا أدري. هل يمكنني القدوم معك إلى الإستديو؟

اتسعت عينا آرون:

ـ لماذا؟ يمكنك ذلك.. ولكن دومينيك سيكون هناك.

ـ لا... لا بأس، لأنني سأراه عاجلاً أم آجلاً، والأحسن أن أنتهي من هذه المشكلة.

ـ هذا صحيح.. لا بأس يا ديبرا، سنخرج خلال نصف ساعة.

كان استديو «أفلام ألفا» ينتشر على أرض مساحتها عدة فدادين أنشيء عليها نماذج من مدن وقرى ومسارح. تركها آرون في صحبة امرأة شابة تدعى «ميلي ماك أندرو» أخذت تطوف بها في أرجاء المكان وهذا ما أنسى ديبرا توترها.. بعد فترة عادت إلى آرون حيث تناولا القهوة معاً في مكتبه. وحينذاك دخل دومينيك بصحبة فتاة نحيفة شقراء ترتدي بنطلوناً وكنزة.. في تلك اللحظة بدا على ديبرا الانكماش، واقتضى منها النظر إليه وردّ تحيته اللامبالية، شجاعة كبرى.

قال آرون يعرفها إلى الفتاة: إنها ديانا ليندون سكرتيرة دومينيك...

قاطعته الفتاة هازلة:

ـ وأنت ديبرا وارن، ابنة آرون.

أومأت ديبرا قائلة: هذا صحيح.

شعرت بدومينيك يراقبها بعينين باردتين. لقد سبق أن رأت في عينيه نظرة ازدراء، وهذا ما أشعرها بأن شيئاً في أعماقها يموت.

سألتها ديانا باهتمام:

ـ وكيف استقر بك الأمر؟ أظنك ترين كل شيء مقلقاً بعد إنكلترا.

ونظرت إلى دومينيك ضاحكة.

ثم تابعت: «وبعد، فقد ركض خلفك أهم رجلين في هوليوود، وهذا شيء يدعو للفخر حقاً» وضحكت.

حاولت ديبرا التصرف بشكل طبيعي، ولكن كل ما استطاعت عمله هو الابتسام بشيء من الجفاء، أما دومينيك فتحدث فترة مع آرون ثم وضع ذراعه حول كتفي ديانا وقال:

ـ هيا بنا، لدينا عمل كثير.

تنهدت ديبرا: «أظنني أريد الذهاب إلى البيت يا آرون، لا أريد أن أراه مرة أخرى».

***

مرّ أسبوع لم تر دومينيك فيه سوى ثلاث مناسبات مختلفة، وفي كل مرة كان يعاملها بنفس البرودة واللامبالاة. حاولت أن لا تهتم لذلك، ولكن كان من الصعب عليها جداً أن تراه فتدرك أنه يكرهها ويحتقرها.

وأخيراً وصلت إلى قرار.. عليها أن تذهب إليه وتخبره أنها أدركت أنها أخطأت بحقه وتطلب منه قبول اعتذارها. كان أملاً ضعيفاً، فقد أساءت الحكم عليه مرات كثيرة من قبل.

لم تذكر قرارها هذا لآرون، واتصلت بدومينيك في بيته بعد ظهر أحد الأيام لأنها كانت تعلم أنه في البيت. فقد أخبرها آرون أن دومينيك يعمل في بيته على وضع تمثيلية جديدة. وعندما اتصلت أجابها أحد الخدم، وعندما طلبت الحديث مع دومينيك، ذهب ثم عاد ليقول لها إنه يحضر اجتماعاً ولا يريد أن يقلقه شيء.. لم تصدق ذلك، بل اقتنعت بأنه لا يريد الكلام معها، فخبطت السماعة مكانها غاضبة.

أخيراً، ارتدت ثوباً مشمشي اللون، ثم طلبت السيارة. دهش السائق عندما أعطته عنوان دومينيك، ولكنه لم يقل شيئاً. في هذا الوقت توترت

أعصابها وشعرت بعدم الثقة، ولكن إذا لم تذهب الآن فلن تتمكن مرة أخرى من استجماع شجاعتها.

كان البحر يبدو هادئاً رائعاً بشكل لا يصدّق، وعندما أصبحت داخل الأسوار المحيطة بمنزل دومينيك، سكنت الأصوات. وعندما خرجت من السيارة، خفضت بصرها إلى الشاطىء الممتد أمام النظر ترمقه بحنين.. كان نظيفاً رائعاً هادئاً، ومهما حدث فهي لن تنسى قط هذا المكان.

اجتازت الفناء مترددة، تاركة السائق ينظر في أثرها بفضول.. بدت لها النافورة المنعشة فتنهدت. ونظرت حولها، إذ لم يكن لديها فكرة أين يمكن أن تجد دومينيك، ولا تعلم مكان المكتب وشعرت بأنها ستضيع بين أروقة المنزل.

سمعت صوتاً خلفها فاستدارت لتواجه خادماً هو جوزيف الذي رأته عندما حملها دومينيك من الشاطىء صاعداً بها إلى المنزل.

سألها مستفسراً: «نعم يا آنسة؟»

ـ آه! اتصلت بالسيد ماكجيل فقيل لي إن لديه اجتماعاً.. ولكن من الضروري أن أقابله...

قال جوزيف بأدب: كان لدى السيد دومينيك اجتماع فعلاً مع شخص يدعى السيد «ليندسي هاريغان» وقد غادر منذ دقائق.

آه! ها هي ذي تخطىء بحقه مرة أخرى.. وكم شعرت بنفسها دنيئة خبيثة، لذا ليس غريباً أن يحتقرها.

ـ إذن.. إذن، هل أستطيع رؤية السيد ماكجيل من فضلك؟

أحنى رأسه قائلاً: «سأرى إن كان موجوداً».

واستدار ليذهب ولكنه وقف فجأة وهو يرى دومينيك يخرج من المنزل متقدماً نحوهما بتكاسل.

ـ سيد ماكجيل، هذه السيدة الشابة تريد التحدث إليك!

ـ شكراً يا جوزيف.

أشار إليه بالذهاب، ثم التفت إلى ديبرا:

ـ نعم، ماذا تريدين؟

شبكت ديبرا يديها بشدة ولم تعرف ماذا تقول.. بدا لها عزيزاً حبيباً بشعره الأشعث وعينيه الزرقاوين الداكنتي الأهداب وجسمه الرشيق.

قالت متلعثمة: «أريد.. أريد أن أتحدث إليك».

قال ببرودة: «عن ماذا؟»

ـ ألا يمكننا الدخول؟ لا أريد الكلام هنا حيث قد يسمعنا أحد.

قال ساخراً: «من المؤكد أن ما يمكن أن تتحدث عنه لا يستحق الدخول إلى المنزل. ما الذي جئت لأجله؟ هل أرسل آرون معك شيئاً؟»

فركت يديها ببعضهما بعضاً:

ـ لا، أرجوك يا دومينيك، لا تتصرف بهذا الشكل. جئت لأقول إنني آسفة.

حدق إليها بعينين ضيقتين: آسفة؟ وما المفروض أن أقول بهذا الشأن؟

أحنت رأسها: اقبل اعتذاري.

ـ ولماذا أقبل اعتذارك؟ لماذا أمنحك هذا الشعور بالرضا؟ لست مديناً لك بشيء.

ـ أعلم ذلك. لقد كنت غبية.. اسمع، أعرف أن لديك كل الحق في أن تغضب مني، ولكن حاول أن ترى الأمر من وجهة نظري.. فكل ما أعرفه عن أمي هو الأقاويل والشائعات.. كانت امرأة رائعة الجمال، حلوة وفاتنة ورقيقة وسخية.. امرأة من السهل أن يحبها الرجل...

قاطعها: «ولكن ليس أنا».

قالت ضارعة: «ولكن ليس من غير المعقول أن أظن ذلك، فأنت كنت تعرفها جيداً. ألا يمكنك أن تحاول التفهم؟»

ـ ولماذا أفعل ذلك؟ وما يهمّك من اعتقادي؟

ـ ألا يمكنك أن ترى؟ كنت صغيرة العقل ومعتوهة. ماذا يمكنني

القول أكثر من ذلك؟

وأشاحت بوجهها وقد تهدج صوتها.

شعرت به فجأة يقترب منها من الخلف ويمدّ أصابعه ويقبض على عنقها وكأنه يهددها. أمسكت أنفاسها لحظة.

قال: «لا بأس.. فقد قبلت عذرك! لقد برّأت نفسك الآن ويمكنك أن تذهبي». وأرخى يديه إلى جنبيه.

قفزت ديبرا نحو النافورة مبتعدة عنه، فتهدل شعرها إلى الأمام مخفياً التعبير البادي على ملامحها.

قال دومينيك بخشونة: «إذهبي يا ديبرا بحق الله».

قالت وظهرها إليه: «أخبرني آرون بسبب إصابة ظهرك.. من الواضح أن حملك لي من الشاطىء هو المسؤول عن عودة الألم، لذا أنا آسفة.. هل... هل أصبح بخير الآن؟»

ـ تماماً.

ولكن صوته ما يزال بارداً.

ارتدت تنظر إليه بقنوط:

ـ أخبرني.. هل السبب الذي جعلك تلحق بي إلى لندن هو مجرد خدمة لآرون؟

هز كتفيه: «وهل يهمك هذا؟»

ـ طبعاً يهمني، أريد أن أعلم.

ـ لم يقلقك الأمر طوال الأسبوعين الماضيين فلماذا يقلقك الآن؟

قالت بصوت مرتجف:

ـ إنك لا تعلم ذلك وإنما تظن نفسك تعلم.. أردت طبعاً أن أعرف.. حتى في لندن... حتى عندما ظننت أنك وأمي كنتما.. حسناً.. ما زلت أريد أن أعرف، ولكنك رحلت حتى دون أن تحاول الدفاع عن نفسك. لماذا لم تفعل ذلك؟

حرك كتفيه بعدم اكتراث:

مهم.

ـ لا أفهم.

اشتد صوته: بالعكس، أظنك تفهمينني جيداً.. ربما يسلّيك التلاعب بمشاعر الرجال، ولكنني أؤكد لك أن هذا لا يسليني.

حدقت ديبرا إليه ذاهلة:

ـ لا، صدقني يا دومينيك فأنا لا أعرف ما تعنيه.

تمتم بعنف: آه، لا تقولي هذا! فأنتِ تعرفين تأثيرك فيّ، ولا تظني أنني لم أقاومه، فقد فعلت ذلك، ولكنك حاولت متعمدة أن تعبثي بي. حسناً، لقد تجاوزت حدّك هذه المرة، لقد طفح الكيل.

نظرت إليه دون أن تفهم:

ـ دومينيك، أرجوك، لا تقل مثل هذه الأشياء.

وأغمضت عينيها لحظة لأنها لا تستطيع استيعاب ما يقوله. ثم تابعت: «إنك.. إنك تحب نساء كثيرات.. لقد قلت ذلك بنفسك، أو ربما آرون هو الذي قاله، فأنا لا أذكر. وما أنا إلا واحدة ظهرت في المشهد مصادفة، وأنت لم تعطني أية إشارة إلى أنني أعني أي شيء لك».

ـ أحقاً لم أفعل؟ يا الله! اسألي أي إنسان.. ألا تعلمين أنني لم ألاحق امرأة قط، وأنهن هن اللاتي يلاحقنني. ولكنك مختلفة.. في البداية شبهك بأليزابيت هو الذي جذبني إليك ولكن فيما بعد... على كل حال، كما سبق أن قلت، لقد انفصل طريقانا الآن.

ـ دومينيك، اسكت أرجوك.

وأخذت تحدق إليه بعدم تصديق..

ضاقت عينا دومينيك وقال بصوت متوتر:

ـ إذا سكت فقد يخرج الأمر من يدي.

ارتدّ وابتعد عنها داخلاً إلى البيت دون أن ينظر إليها.

ترددت ديبرا، ولكن للحظة واحدة ثم لحقت به.. دخل قاعة الرقص التي كانت خالية الآن، فأخذت ديبرا تجول بنظراتها تستوعب ما تراه. أما

دومينيك فوقف في وسط القاعة ينظر إليها بعينين مصممتين.

قال لها بصوت أجش: «سيارتك تنتظرك».

ـ أعلم هذا.

ـ اذهبي إذن إلى بيتك.

تمتمت تقول برقة: «هذا وقف على المكان الذي يدعوه الشخص بيته».

ضاقت عينا دومينيك بشكل مقلق:

ـ ما معنى هذا؟ أحذرك يا ديبرا من اللعب معي لأنك ستحصلين على أكثر مما تتوقعين.

بسطت ديبرا يديها بشبه ابتسامة، ثم أخذت تدور بهذا الشكل وهي تقول:

ـ إنه مكان رائع! لديه حتى أثناء النهار سحره الخاص.

تصلب دومينيك وانقبضت يداه، ثم قال:

ـ اسمعي، أنا متعب.. أعمل منذ الصباح الباكر، وليس لديّ وقت لعبثك الصبياني.

قال ذلك متعمداً أن يجعل كلماته مؤذية، ولكن ديبرا لم تفعل سوى أن وقفت وهي تبتسم، ثم سارت إليه ببطء وعيناها في عينيه، وعندما وصلت إليه مدّ يده يقبض على معصمها بشدة آلمتها، ثم تأوّه بألم: «إنك مجنونة.. إذا كنت لا تعنين هذا حقاً يا ديبرا، فأنت مجنونة».

ـ آه! ولكنني أعنيه حقاً.

قالت ذلك برقة وهي تخلص معصمها من قبضته وتزيد من اقترابها منه، ثم أردفت تقول:

ـ نعم، تبدو مرهقاً حقاً.

ثم أخذت تمرّ على خطوط وجنته بأناملها.

أمسك يدها، وضغط فمه على راحتها، فارتجفت وطوقت عنقه بذراعيها وراحت تخلل شعره بأصابعها، وترفع وجهها إليه... ساد

الصمت في القاعة عدة دقائق، ثم أمسك بكتفيها يبعدها عنه قليلاً وهو يحدّق فيها جاداً:

ـ ديبرا، إياك أن ترتكبي أية غلطة، فالأمر حقيقي بالنسبة إليّ. إذا أردت أن تعيشي معي، فسيكون ذلك مدى الحياة. أعلم أنني كبير السن بالنسبة إليك...

عندما ضغطت بأصابعها على شفتيه تسكته، عاد يقول: «نعم، أنا كذلك، ولكن، فليساعدني الله! لا أستطيع أن أدعك تذهبين».

سألته بعينين باسمتين: «ما الذي تعنيه بقولك: (أعيش معك)؟»

تمتم يقول: «إنك تعلمين ما أعني.. هذا يعني أنني أريد أن أتزوجك».

أمسكت وجهه بين راحتيها: دومينيك، لماذا؟ أخبرني لماذا؟

ـ لأنني أحبك.. لأنني بحاجة إليك ولأنني لا أستطيع الحياة بدونك. ألا تظنين هذا اعترافاً مني؟ لم أعتقد قط أنني سأقول هذه الكلمات.. ولكنك تسللت بأفكارك الرجعية الطريفة إلى نفسي بحيث لم أعد أستطيع التفكير في شيء آخر. سألتني لماذا لحقت بك إلى لندن... وسأخبرك. السبب هو أنني كدت أخرج عن طوري من القلق.. يا لله! ديبرا، تزوجيني حالاً.. في أقرب وقت.

انحنى يعانقها فبادلته العناق بكل مشاعر صباها المحمومة.. الآن لم يعد يهمها ما حدث من قبل، فالمستقبل وحده هو المهم.. وربما بإمكان أليزابيت أن تراهما الآن فيتملكها السرور لأن دومينيك قد أحب ابنتها.

***